
مهرجان القراءة للجميع
٢٠٠١
مكتبة الأسرة
المختار من شعر
محمود درويش
الهيئة المصرية
العامة للكتاب

المختار من شعر: محمود درويش

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى : **بورتريه محمود درويش**

التقنية : **صوره بالأبيض والأسود**

المقاس: عولجت على الكمبيوتر

حاول فنان الكمبيوتر المزج التام بين لوحة الخلفية، التى تضمنت العديد من قصائد الشاعر الفلسطينى الكبير محمود درويش، وهى أرضية رمادية اللون، كتبت باللون الأبيض، بخط الفرشاة الحر، وتعمد الفنان تحديد نظرة الشاعر إلى البعيد، وكأنه يتأمل المستقبل القادم، وحتى الرداء ذو اللون الأحمر، زخرفه الفنان بوحدات سريعة، تلمح إلى الزخارف الفلسطينية، ويميز الهدوء اللونى مجمل اللوحة.

محمود الهندى

إهـــــــداء2006

ورثة الكيميائي/ محمد فاروق الفران
الإسكندرية

المختار من شعر

محمـود درويـش

إعداد : د. محمد عنانى



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١

مكتبة الأسـرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الروائع)

المختار من شعر:

محمود درويش

إعداد : د. محمد عنانى

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان : **محمود الهندى**

المشرف العام :

د. سمير سرحـــان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقـافـة

وزارة الإعـلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزار ة الشـــباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً وبسعر فى متناول الجميع ليشبع نهمه للمعرفة دون عناء مادى وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تتربع فى صدارة البيت المصرى بثراء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخاً تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء). وتنضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» فى (٢٠ جزء).. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

د. سمير سرحان



تصديـــر

هذه مجموعة مختارة من قصائد الشاعر الكبير محمود درويش روعى فى انتقـائها تمثـيل شتى المحاور التى يـدور حولها شـعره ، وكذلك شتى الاتجاهات الفنية التى يعتـبر رائدًا لها ، فهو من كبار المجددين فى حركة الشعر العربى المعاصر ، وهو يتميز بالجمع بين ما يسمى بصوت الشاعر الفرد ، وصوت الجماعة أو الصوت الذى يمثل ضمـير أمته العربيـة ، وإذا كان الصوتان يتلازمـان فى معظم القصـائد ، فإنهمـا أحيانًا مـا يصطدمان لتـوليد ما يســمي بالحوار الدرامى الداخلى الذى يقرب بين الـشعر الذى يعتـبر « غنائيًا » أو مفرد الصوت وبين الشعر « الدرامى » ذى الأصوات المتعددة .

إن مكتبة الأسرة يسعدها أن تتيح للقارئ العربى فى مصر هذه النماذج المتميزة من شعـر ذلك الشاعر المبدع ، وتأمل فى أن تحفزه المختارات على قراءة سائر أعمـال الشاعر الذى يتسم بغزارة الإنتاج والتنوع الشديد.

مكتبة الأسرة



١ إلى القارئ

الزنبقاتُ السودُ فى قلبى

وفى شَفَتى . . . اللهبْ

من أى غابٍ جئتِنى

يا كلَّ صلبانِ الغضبْ ؟

بايعتُ أحزانى . .

وصافحتُ التشردَ والسّغَبْ

غضبٌ يدى . .

غضبٌ فمى . .

ودماءُ أوردتى عصيرٌ من غضبْ !

يا قارئى !

لا ترجُ منى الهمسَ !

لا ترجُ الطربْ

هذا عذابى . .

ضربةٌ فى الرمل طائشةٌ

وأُخرى فى السُّحُبْ !

حسبى بأنى غاضبٌ

والنارُ أولُها غَضَبْ !

*

٢ ولاء

حملتُ صوتكَ فى قلبى وأوردتى

فما عليك إذا فارقتَ معركتى

أطعمتُ للريح أبياتى وزخرفها

إن لم تكن كسيوف النار . . قافيتى !

آمنت بالحرفِ . . إما ميتًا عدَمًا

أو ناصبًا لعدوّى حبلَ مشنقةِ

آمنت بالحرف نارًا . . لا يضير إذا

كنت [illegible] أنا . . أو كان طاغيتى !

فإن سقطتُ . . وكفى رافع علمى

سيكتبُ الناس فوق القبر :

« لم يَمُتِ »

*

٣ بطاقة هوية

سَجِّلْ !

أنا عربى

ورقم بطاقتى خمسون ألفْ

وأطفالى ثمانيةٌ

وتاسِعُهم . . . سيأتى بعد صيفْ !

*

سجل !

أنا عربى

وأعمل مع رفاق الكدح فى محجرْ

وأطفالى ثمانيةٌ

أسلُّ لهم رغيفَ الخبزِ ،

والأثوابَ والدفترْ

من الصخرِ . .

ولا أتوسَّلُ الصَّدَقاتِ من بابِكْ

ولا أصغرْ

أمام بلاط أعتابك

فهل تغضبْ ؟

*

سجل !

أنا عربى

أنا إسمٌ بلا لَقَبِ

صَبُورٌ فى بلادٍ كُلُّ ما فيها

يعيش بفَوْرةِ الغضب

جذورى . .

قبل ميلاد الزمان رستْ

وقبل تفتُّحِ الحقبِ

وقبل السرو والزيتونْ

. . وقبل ترعرع العشبِ

أبى . . . من أُسرة المحراث

لا من سادةٍ نُجُبِ

وجدى كان فلاحًا

بلا حسبٍ .. ولا نسبٍ !

يُعَلمنى شموخ الشمس قبل قراءة الكتبِ

وبيتى ، كوخُ ناطورٍ

من الأعواد والقصبِ

فهل تُرضيك منزلتى ؟

أنا إسمٌ بلا لقبِ !

*

سجل !

أنا عربى

ولون الشعر فحمىٌّ

ولون العين بنىٌّ

وميزاتى :

على رأسى عقالٌ فوق كوفِيَّةْ

وكفى صلبةٌ كالصخر . . .

تخمشُ من يلامسها

وعنوانى :

أنا من قريةٍ عزلاء . . . منسيّهْ

شوارعها بلا أسماء

وكل رجالها . . . فى الحقل والمحجرْ

فهل تغضب ؟

*

سجل

أنا عربى

سلبتُ كروم أجدادى

وأرضًا كنتُ أفلحها

أنا وجميع أولادى

ولم تترك لنا . . ولكل أحفادى

سوى هذى الصخور . .

فهل ستأخذُها

حكومتكم . . . كما قيلا !؟

إذن !

سجل ... برأس الصفحة الأولى

أنا لا أكرهُ الناسَ

ولا أسطو على أحد

ولكنى ... إذا ما جعتُ

آكلُ لحم مغتصبى

حذارِ ... حذارِ ... من جوعى

ومن غضبى !!

*

٤ أبى

غَضَّ طرفًا عن القمرْ

وانحنى يحضن التراب

وصلّى . .

لسماء بلا مطر ،

ونهانى عن السفر !

أشعل البرقُ أوديهْ

كان فيها أبى

يربى الحجارا

من قديم . . ويخلق الأشجارا

جلدُهُ ينذفُ الندى

يدهُ تورقُ الشجْر

فبكى الأفق أغنيهْ :

- كان أوديس فارسًا . .

كان فى البيت أرغفهْ

ونبيذ ، وأغطيه

وخيول ، وأحذيهْ

وأبى قال مرة

حين صلّى على حجرْ :

غُضَّ طرفًا عن القمر

واحذر البحر . . والسفر !

يوم كان الإله يجلد عبدَهْ

قلت : يا ناس ! نكفرُ ؟

فروى لى أبى . . وطأطأ زنده :

فى حوار مع العذاب

كان أيوب يشكرُ

خالق الدود . . والسحاب !

خُلِقَ الجرحُ لى أنا

لا لميْت .. ولا صنمْ

فدع الجرح والألم

وأعنّي على الندم !

مرَّ في الأفق كوكبُ

نازلاً .. نازلاً

وكان قميصي

بين نار ، وبين ريحْ

وعيوني تفكِّرُ

برسوم على التراب

وأبي قال مرة :

الذي ما له وطن

ما له في الثرى ضريح

.. ونهاني عن السفر !

*

٥ الجرح القديم

واقفٌ تحت الشبابيك ،

على الشارع واقفْ

درجات السلّم المهجور لا تعرف خطوى

لا ولا الشبّاك عارفْ .

من يد النخلة أصطادُ سحابه

عندما تسقط فى حلقى ذبابه

وعلى أنقاض إنسانيتى

تعبرُ الشمسُ وأقدامُ العواصفْ

واقفٌ تحت الشبابيك العتيقه

من يدى يهرب دُورىٌّ وأزهار حديقه

اسألينى : كمْ من العمر مضى حتى تلاقى

كلٌّ هذا اللون والموت ، تلاقى بدقيقه ؟

وأنا أجتازُ سردابًا من النسيان ،

والفلفل ، والصوت النحاسى

من يدى يهرب دورىٌّ . .

وفى عينى ينوب الصمت عن قول الحقيقه !

عندما تنفجر الريح بجلدى

وتكفُّ الشمسُ عن طهو النعاسْ

وأُسمّى كل شىء باسمه ،

عندها أبتاع مفتاحًا وشباكًا جديدًا

بأناشيد الحماس !

- أيها القلبُ الذى يُحرم من شمس النهار

ومن الأزهار والعيد ، كَفانا !

علموناا أن نصون الحب بالكره !

وأن نكسو ندى الورد . . غبار !

- أيها الصوتُ الذى رفرف فى لحمى

عصافير لهبْ ،

علّمونا أن نُغنى ، ونحب

كلٌّ ما يطلعه الحقلُ من العُشْب ،

من النمل ، وما يتركه الصيفُ على أطلال دارِ

علّمونا أن نُغنى ، ونداری

حبَّنا الوحشيَّ ، کی لا

يصبح الترنيم بالحب مملاً !

عندما تنفجر الريحُ بجلدی

سأسمى كلَّ شیء باسمه

وأدق الحزن والليل بقيدی

يا شبابيكى القديمه . . !

*

٦ أغنية حب على الصليب

مدينةَ كل الجروح الصغيره

ألا تخمدين يدىَّ ؟

ألا تبعثين غزالاً إلىَّ ؟

وعن جبهتى تنفضين الدخان .. وعن رئتىَّ ؟!

حنينى إليك .. اغترابْ

ولقياك .. منفى !

أدقُّ على كل باب ..

أُنادى ، وأسأل ، كيفَ

تصير النجومُ تراب ؟

أحبكِ كونى صليبى

وكونى ، كما شئتِ ، بُرْجَ حمامْ

إذا ذوّبتنى يداك

ملأت الصحارى غمام

لحبك يا كلَّ حبى ، مذاقُ الزبيبْ

وطعم الدمِ

على جبهتى قمر لا يغيب

ونارٌ وقيثارة فى فمى !

إذا متُّ حباً فلا تدفنينى

وخلى ضريحى رموش الرياح

لأزرع صوتك فى كل طين

وأشهر سيفك فى كل ساح

أحبك ، كونى صليبى

وما شئت كونى

وكالشمس ذوبى

بقلبى .. ولا ترحمينى ..

٧ خارج من الأسطورة

إننى أنهضُ من قاع الأساطير

وأصطاد على كل السطوح النائمه

خطوات الأهل والأحباب . . أصطاد نجومى القاتمة

إننى أمشى على مهلى ، وقلبى مثل نصف البرتقالهْ

وأنا أعجب للقلب الذى يحمل حاره

وجبالاً ، كيف لا يسأم حاله !

وأنا أمشى على مهلى . . وعينى تقرأ الأسماءَ

والغيم على كل الحجاره

وعلى جيدك يا ذات العيون السود

يا سيفى المذهَّبْ

ها أنا أنهض من قاع الأساطير . . وألعبْ

مثل دورىٍّ على الأرض . . . وأشرب

من سحاب عالق فى ذيل زيتون ونخلِ

ها أنا أشتمُّ أحبابى وأهلى

فيك ، يا ذات العيون السود . . . يا ثوبى المقصَّب
لم تزل كفّاك تليّن من الخضرة ، والقمح المذهَّبْ
وعلى عينيك ما زال بساطُ الصحو
بالوشم الحريرىّ . . مكوكب !

إننى أقرأ فى عينيك ميلاد النهارْ
إننى أقرأ أسرار العواصف
لم تشيخى . . لم تخونى . . لم تموتى
إنما غيَّرتِ ألوان المعاطف
عندما انهار الأحبّاءُ الكبار
وامتشقنا ، لملاقاة البنادق
باقة من أغنيات وزنابق !
آه . . يا ذات العيون السود ، والوجه المعفَّرْ
يشرب الشارعُ والملحُ دمى
كلما مرت على بالىَ أقمارُ الطفوله
خلف أسوارك يا سجن المواويل الطويلهْ
خلف أسوارك ، ربَّيت عصافيرى
ونحلى ، ونبيذى ، وخميلهْ

٨ اعتذار

حلمتُ بعرس الطفولهْ

بعينين واسعتين حلمت

حلمتُ بذات الجديلهْ

حلمتُ بزيتونةٍ لا تُباع

ببعض قروشٍ قليلهْ

حلمتُ بأسوار تاريخكِ المستحيلهْ

حلمتُ برائحة اللوز

تشعل حزن الليالى الطويلهْ

بأهلى حلمت . .

بساعد أختى

سيلتفُّ حولى وِشاحَ بطولهْ

حلمت بليلة صيف

بسلّة تينِ

حلمتُ كثيرًا

كثيرًا حلمتُ . .

إذن سامحينى !!.

*

٩ المستحيل

أموت اشتياقًا

أموت احتراقًا

وشنقًا أموت

وذبحًا أموت

ولكننى لا أقول :

مضى حبنا ، وانقضى

حبنا لايموت

*

١٠ الورد والقاموس

وليكن .

لابد لى . .

لا بد للشاعر من نخب جديدْ

وأناشيد جديده

إننى أحمل مفتاح الأساطير وآثار العبيد

وأنا أجتاز سردابًا من النسيان

والفلفل ، والصيف القديم

وأرى التاريخ فى هيئة شيخ ،

يلعب النرد ويمتصُّ النجوم

وليكن لا بدَّ لى أن أرفض الموت ،

وإن كانت أساطيرى تموت

إننى أبحث فى الأنقاض عن ضوء ، وعن شعر جديد

آه . . هل أدركت قبل اليوم

أن الحرف في القاموس ، يا حبى ، بليد

كيف تحيا كلُّ هذى الكلمات !

كيف تنمو ؟ . . كيف تكبر ؟

نحن ما زلنا نغذيها دموع الذكريات

واستعارات . . وسُكَّر !

وليكن . .

لا بد لى أن أرفض الورد الذى

يأتى من القاموس ، أو ديوان شعر

ينبت الورد على ساعد فلاّح ، وفى قبضة عامل

ينبت الورد على جرح مقاتل

وعلى جبهة صخر . .

*

١١ وعود من العاصفة

وليكن . . .

لا بدَّ لى أن أرفض الموت

وأن أحرق دمع الأغنيات الراعفهْ

وأعرّى شجر الزيتون من كل الغصون الزائفهْ

فإذا كنت أغنى للفرحْ

خلف أجفان العيون الخائفهْ

فلأنَّ العاصفة

وعدتنى بنبيذ . . وبأنخاب جديده

وبأقواس قزح

ولأن العاصفهْ

كنَست صوت العصافير البليده

والغصون المستعاره

عن جذوع الشجرات الواقفهْ .

وليكن . .

لا بدَّ لى أن أتباهى ، بك ، يا جرح المدينهْ

أنت يا لوحة برق فى ليالينا الحزينهْ

يعبس الشارع فى وجهى

فتحمينى من الظل ونظرات الضغينهْ

سأغنى للفرح

خلف أجفان العيون الخائفهْ

منذ هبت ، فى بلادى ، العاصفهْ

وعدتنى بنبيذ ، وبأقواس قزح

*

١٢ اغنية ساذجة عن الصليب الأحمر

هل لكل الناس ، فى كل مكانِ

أذرع تطلع خبزًا وأمانى

ونشيدًا وطنيًا ؟

فلماذا يا أبى نأكل غُصْنَ السنديانِ

ونغنى ، خلسة ، شعرًا شجيًا ؟

يا أبى ! نحن بخير وأمانِ

بين أحضان الصليب الأحمرِ !

*

عندما تُفرغ أكياسُ الطحينِ

يصبح البدرُ رغيفًا فى عيونى

فلماذا يا أبى ، بعتَ زغاريدى ودينى

بفُتاتٍ وبجبنٍ أصفرِ

فى حوانيت الصليب الأحمرِ ؟

*

يا أبى ! هل غابة الزيتون تحمينا إذا جاء المطر ؟
وهل الأشجار تغنينا عن النار ، وهل ضوء القمر
سيذيب الثلج ، أو يحرق أشباح الليالى
إننى أسألُ مليون سؤال
وبعينيك أرى صمتَ الحجر
فأجبنى ، يا أبى ، أنت أبى
أم ترانى صرت إبنًا للصليب الأحمرِ ؟!

*

يا أبى ! هل تنبت الأزهارُ فى ظل الصليبْ ؟
هل يغنى عندليبْ ؟
فلماذا نسفوا بيتى الصغيرا
ولماذا ، يا أبى ، تحلم بالشمس إذا جاء المغيبْ ؟
وتناديني ، تناديني كثيراً
وأنا أحلم بالحلوى وحبات الزبيبْ
فى دكاكين الصليب الأحمرِ

*

حرمونى من أراجيح النهار

عجنوا بالوحل خبزى .. ورموشى بالغبار

أخذوا منى حصانى الخشبى

جعلونى أحمل الأثقال عن ظهر أبى

جعلونى أحمل الليلةَ عام

آه من فجّرنى فى لحظةٍ جدول نار ؟

آه ، من يسلبنى طبع الحمام

تحت أعلام الصليب الأحمرِ !

ملاحظة على الأغنية

أخذوا منك الحصار الخشبى

أخذوا ، لا بأس ، ظلً الكوكبِ

يا صبى !

يا زهرة البركان ، يا نبض يدى

إننى أبصر فى عينيك ميلاد الغدِ

وجوادًا غاص فى لحم أبى

نحن أدرى بالشياطين التى تجعل من طفل نبيًا

قل مع القائل : . . . لم أسألك عبئًا هينًا

يا إلهى ! أعطنى ظهرًا قويًا . . !

أخذوا بابًا . . ليعطوك رياح

فتحوا جرحًا ليعطوك صباح

هدموا بيتًا لكى تبنى وطن

حَسَنٌ هذا . . حسن

نحن أدرى بالشياطين التى تجعل من طفل نبيًا

قل مع القائل : . . . لم أسألك عبئًا هينًا

يا إلهى ! أعطنى ظهرًا قويًا . . !

*

١٣ أنا آتٍ إلى ظل عينيك

أنا آتٍ إلى ظلِّ عينيك . . آتِ

من خيام الزمان البعيد ، ومن لمعان السلاسلْ

أنتِ كل النساء اللواتى

مات أزواجهن . وكل الثواكل

أنتِ

أنتِ العيون التى فرَّ منها الصباح

حين صارت أغانى البلابل

ورقًا يابسًا فى مهبِّ الرياح !

أنا آتٍ إلى ظلِّ عينيك . . آتِ

من جلود تحاك السجاجيد منها . . . ومن حدقاتِ

عُلِّقَت فوق جيد الأميرة عقدًا .

أنتِ بيتى ومنفاى . . أنتِ

أنت أرضى التى دمَّرتنى

أنت أرضى التى حوَّلتنى سماء . .

وأنتِ . .

كل ما قيل عنك ارتجال وكذبهْ !

لست سمراءَ ،

لست غزالاً ،

ولست الندى والنبيذ ،

ولستِ

كوكبًا طالعًا من كتاب الأغانى القديمهْ

عندما ارتجَّ صوت المغنين . . . كنتِ

لغة الدم حين تصير الشوارع غابهْ

وتصير العيون زجاجًا

ويصير الحنين جريمهْ .

لا تموتى على شُرُفات الكآبهْ

كُلُّ لون على شفتيك احتفالْ

يا لليالى التى انصرمت . . . بالنهار الذى سوف يأتى

أولَ سطر بسِفْر الجبال
الجبال التى أصبحت سُلَّمًا نحو موتى !
والسياطُ التى احترقت فوق ظهرى وظهرك
سوف تبقى سؤال :
أين سمــار كل المنابر ؟
أين الذى كان . . كان يلوك حجارة قبرى وقبرك .

ما الذى يجعل الكلمات عرايا ؟
ما الذى يجعل الريح شوكًا ، وفحم الليالى مرايا ؟
ما الذى ينزع الجلد عنى ، ويثقب عظمى ؟
ما الذى يجعل القلب مثل القذيفهْ ؟
وضلوع المغنّين ساريةً للبيارقْ ؟
ما الذى يفرش النار تحت سرير الخليفهْ ؟
ما الذى يجعل الشفتين صواعق ؟
أُخته . . أمه . . حبه
لعبةٌ بين أيدى الجنود
وبين سماسرة الخُطب الحاميهْ

فيعض القيود .. ويأتى

إلى الموت .. يأتى

إلى ظلٍّ عينيك .. يأتى !

أنا آتٍ إلى ظلٍّ عينيك .. آتٍ

من كتاب الكلام المحنط فوق الشفاه المعادهْ

أكلتْ فرسى ، فى الطريق ، جرادهْ

مزَّقتْ جبهتى ، فى الطريق ، سحابهْ

صلبتنى على الطريق ذبابهْ !

فاغفرى لى ..

كل هذا الهوان ، اغفرى لى

انتمائى إلى هامش يحترق !

واغفرى لى قرابهْ

ربطتنى بزوبعة فى كؤوس الورق

واجعلينى شهيد الدفاع

عن العشب

والحب

والسخريهْ

عن غبار الشوارع أو عن غبار الشجر

عن عيون النساء ، جميع النساء

وعن حركات الحجر .

واجعليني أحب الصليب الذى لا يُحبْ

واجعليني بريقًا صغيرًا بعينيك

حين ينام اللهب !.

أنا آتٍ إلى ظلّ عينيك .. آتٍ

مثل نسر يبيعون ريش جناحهْ

ويبيعون نار جراحهْ

بقناع . وباعوا الوطنْ

بعصا يكسرون بها كلمات المغنى .

وقالوا : اذبحوا واذبحوا ..

ثم قالوا : هى الحرب كرٌّ وفرٌّ ..

ثم فروا ..

وفروا ..

وفروا ..

وتباهوا .. تباهوا ..

أوسعوهم هجاء وشتمًا ، وأودوا بكل الوطن !.

حين كانت يداى السّياجَ ، وكنتِ حديقهْ

لعبوا النرد تحت ظلال النعاسِ

حين كانت سياط جهنم تشرب جلدى

شربوا الخمر نخب انتصار الكراسى !.

حين مرت طوابير فرسانهم فى المرايا

ساومونا على بيت شِعر ، وقالوا :

ألهبوا الخيل . كل السبايا

أقبلتْ أقبلتْ من خيام المنافى

كذبوا ! لم يكن جرحنا غير منبرْ

للذى باعه .. باع حطين .. باع السيوف ليبنى منبرْ

نحو مجد الكراسى !..

أنا آتِ إلى ظلٍّ عينيك .. آتِ

من غبار الأكاذيب .. آتِ

من قشور الأساطير آتِ

أنت لى .. أنت حزنى وأنتِ الفرح

أنتِ جرحى وقوس قزح

أنتِ قيدى وحريّتى

أنتِ طينى وأسطورتى

أنتِ لى .. أنت لى .. بجراحكْ

كل جرح حديقهْ !.

أنت لى .. أنت لى .. بنواحك

كل صوت حقيقهْ .

أنت شمسى التى تنطفىء

أنتِ ليلى الذى يشتعل

أنت موتى ، وأنت حياتى

وسآتى إلى ظلِّ عينيك .. آتِ

وردةً أزهرت فى شفاه الصواعق

قبلةً أينعت فى دخان الحرائق

فاذكرينى .. إذا ما رسمت القمر

فوق وجهى ، وفوق جذوع الشجر

مثلما تذكرين المطر

وكما تذكرين الحصى والحديقهْ

واذكريني ،

كما تذكرين العناوين فى فهرس الشهداء

أنا صادقتُ أحْذية الصِّبية الضعفاء

أنا قاومتُ كُل عروش القياصرة الأقوياء

لم أبع مهرتى فى مزاد الشعار المساوم

لم أذق خبز نائم

لم أُساوم

لم أدق الطبول لعرس الجماجم

وأنا ضائع فيك بين المراثى وبين الملاحم

بين شمسى وبين الدم المستباح

جئت عينيك حين تجمّدَ ظلى

والأغانى اشتهت قائليها !..

*

١٤ احمد الزعتر

ليدين من حَجَر وزعترْ
هذا النشيدُ . . لأحمدَ المنسىِّ بين فراشتين
مَضَتِ الغيومُ وشرَّدتنى
ورمتْ معاطِفها الجبالُ وخبأتنى

. . نازلاً من نخلة الجرح القديم إلى تفاصيل
البلاد وكانت السنةُ انفصال البحر عن مدن
الرماد وكنتُ وحدى
ثم وحدى . . .
آه يا وحدى ؟ وأحمدْ
كان اغترابَ البحر بين رصاصتين
مُخيّمًا ينمو ، ويُنجب زعترًا ومقاتلين
وساعدًا يشتدُّ فى النسيان
ذاكرةً تجىء من القطارات التى تمضى

وأرصفةً بلا مستقبلين وياسمين
كان اكتشافَ الذات فى العرباتِ
أو فى المشهد البحرىِّ
فى ليل الزنازين الشقيقةِ
فى العلاقات السريعة
والسؤال عن الحقيقهْ
فى كلِّ شىء كان أحمدُ يلتقى بنقيضه
عشرين عامًا كان يسألْ
عشرين عامًا كان يرحلْ
عشرين عامًا لم تلده أمُّهُ إلاّ دقائقَ فى
إناء الموز
وانسَحَبَتْ .
يريد هويةً فيصاب بالبركانِ ،
سافرتِ الغيومُ وشرَّدتنى
ورَمَتْ معاطفها الجبالُ وخبَّأتنى

أنا أحمد العربىُّ - قالَ
أنا الرصاصُ البرتقالُ الذكرياتُ

وجدتُ نفسى قرب نفسى

فابتعدتُ عن الندى والمشهد البحرىَ

تل الزعتر الخيمهْ

وأنا البلاد وقد أتَتْ

وتقمّصتنى

وأنا الذهاب المستمر إلى البلاد

وجدتُ نفسى ملء نفسى . . .

.

راح أحمدُ يلتقى بضلوعه ويديه

كان الخطوةَ - النجمهْ

ومن المحيط إلى الخليج ، من الخليج إلى المحيط

كانوا يُعدّون الرماحَ

وأحمدُ العربىُّ يصعد كى يرى حيفا

ويقفزَ .

أحمدُ الآن الرهينهْ

تركتْ شوارعَها المدينهْ

وأتتْ إليه

لتقتلهْ

ومن الخليج إلى المحيط ، من المحيط إلى الخليج
كانوا يُعدُّون الجنازةَ
وانتخاب المقصلهْ

أنا أحمدُ العربيُّ - فليأتِ الحصارْ
جسدى هو الأسوار - فليأت الحصار
وأنا حدود النار - فليأت الحصار
وأنا أحاصركم
أحاصركم
وصدرى بابُ كلِّ الناس - فليأت الحصار

لم تأتِ أغنيتى لترسم أحمدَ الكحلىَّ فى الخندقْ
الذكرياتُ وراء ظهرى ، وهو يوم الشمس والزنبق
يا أيها الولد الموزَّعُ بين نافذتين
لا تتبادلان رسائلى
قاومْ
إنَّ التشابه للرمال . . . وأنتَ للأزرقْ

وأعُدُّ أضلاعى فيهرب من يدى بردى

وتتركنى ضفاف النيل مبتعدا

وأبحثُ عن حدود أصابعى

فأرى انعواصمَ كلّها زَبَدَا . . .

وأحمدُ يفرُكُ الساعاتِ فى الخندقْ

لم تأتِ أُغنيتى لترسم أحمد المحروق بالأزرق

هو أحمد الكَوْنىُّ فى هذا الصفيح الضيِّقِ

المتمزِّق الحالمْ

وهو الرصاص البرتقالىُّ . . البنفسَجَةُ الرصاصيَّهْ

وهو اندلاعُ ظهيرة حاسمْ

فى يوم حريَّهْ

يا أيها الولد المكرّس للندى

قاومْ !

يا أيها البلد - المسدَّس فى دمى

قاومْ !

الآن أكمل فيك أُغنيتى

وأذهبُ فى حصاركْ

والآن أكمل فيك أسئلتى

وأولد من غبارك

فاذهب إلى قلبى تجد شعبى

شعوبًا فى انفجارك

. . . سائرًا بين التفاصيل اتكأتُ على مياهٍ

فانكسرتُ

أكلّما نَهَدَتْ سفرجلةٌ نسيتُ حدود قلبى

والتجأتُ إلى حصارٍ كى أحدِّد قامتى

يا أحمد العربىُّ ؟

لم يكذب علىَّ الحب . لكن كُلّما جاء المساء

امتصَّنى جَرَسٌ بعيدٌ

والتجأتُ إلى نزيفى كى أُحدِّد صورتى

يا أحمد العربىُّ .

لم أغسل دمى من خبز أعدائى

ولكن كُلّما مرَّت خُطَاىَ على طريقٍ

فرَّتِ الطرقُ البعيدةُ والقريبةُ .

كلّما آخيتُ عاصمةً رمَتنى بالحقيبةِ

فالتجأتُ إلى رصيف الحلم والأشعار

كم أمشى إلى حُلُمى فتسبقنى الخناجرُ
آه من حلمى ومن روما !
جميلٌ أنت فى المنفى
قتيلٌ أنت فى روما
وحيفا من هنا بدأتْ
وأحمدُ سُلَّمُ الكرملْ
وبسملة الندى والزعتر البلدى والمنزلْ

لا تسرقوه من السنونو
لا تأخذوه من الندى
كتبت مراثيها العيونُ
وتركت قلبى للصدى

لا تسرقوه من الأبدْ
وتبعثروه على الصليب
فهو الخريطةُ والجسدْ
وهو اشتعال العندليب

لا تأخذوه من الحَمَامْ

لا ترسلوهُ إلى الوظيفهْ

لا ترسموا دمه وسام

فهو البنفسج فى قذيفهْ

صاعدًا نحو التئام الحلم

تَتَّخذُ التفاصيلُ الرديئةُ شكلَ كُمَّثرى

وتنفصل البلادُ عن المكاتبِ

والخيولُ عن الحقائبِ

للحصى عرقٌ أقبِّلُ صمتَ هذا الملح

أعطى خطبة الليمون لليمون

أوقدُ شمعتى من جرحىَ المفتوحِ للأزهار

والسمكِ المجفَّفِ

للحصى عَرَقٌ ومرآةٌ

وللحطّاب قلبُ يمامةٍ

أنساكِ أحيانًا لينسانى رجالُ الأمنِ

يا امرأتى الجميلةَ تقطعين القلب والبَصَلَ

الطرىَّ وتذهبين إلى البنفسج

فاذكرينى قبل أن أنسى يدىً
.. وصاعدًا نحو التئام الحلم
تنكمش المقاعدُ تحت أشجارى وظلّكِ ...
يختفى المتسلّقون على جراحك كالذباب الموسمىّ
ويختفى المتفرجون على جراحك
فاذكرينى قبل أن أنسى يدىً !
وللفراشات اجتهادى
والصخورُ رسائلى فى الأرض
لا طروادة بيتى
ولا مسّادةٌ وقتى
وأصعد من جفاف الخبز والماء المصادَرِ
من حصان ضاع فى درب المطارِ
ومن هواء البحر أصعدُ
من شظايا أدْمَنَتْ جسدى
وأصعدُ من عيون القادمين إلى غروب السهلِ
أصعدُ من صناديق الخضارِ
وقوّةَ الأشياء أصعدُ
أنتمى لسمائى الأولى وللفقراء فى كل الأزقّة

ينشدون :

صامدون

وصامدون

وصامدون

كان المخيَّمُ جسمَ أحمدْ

كانت دمشقُ جفونَ أحمدْ

كان الحجاز ظلال أحمدْ

صار الحصارُ مُرورَ أحمدَ فوق أفئدة الملايين

الأسيرهْ

صار الحصارُ هُجُومَ أحمدْ

والبحر طلقته الأخيرهْ !

يا خَصْرَ كلِّ الريح

يا أسبوع سُكَّرْ !

يا اسم العيون ويا رُخاميَّ الصدى

يا أحمد المولود من حجر وزعترْ

ستقول : لا

ستقول : لا

جلدى عباءةُ كلِّ فلاح سيأتى من حقول التبغ

كى يلغى العواصمْ

وتقول : لا

جسدى بيان القادمين من الصناعات الخفيفةِ

والتردد . والملاحمْ

نحو اقتحام المرحلهْ

وتقول : لا

ويدى تحياتُ الزهور وقنبلهْ

مرفوعة كالواجب اليومى ضدَّ المرحلهْ

وتقول : لا

يا أيها الجسد المُضرَّج بالسفوحِ

وبالشموس المقبلهْ

وتقول : لا

يا أيها الجسد الذى يتزوج الأمواج

فوق المقصلهْ

وتقول : لا

وتقول : لا

وتقول : لا !

وتموت قرب دمى وتحيا فى الطحين
ونزور صمتك حين تطلبنا يداكَ
وحين تشعلنا اليراعهْ
مشت الخيولُ على العصافير الصغيرةِ
فابتكرنا الياسمين
ليغيب وجهُ الموت عن كلماتنا
فاذهب بعيدًا فى الغمام وفى الزراعهْ
لا وقت للمنفى وأُغنيتى . . . :
سيجرفُنا زحامُ الموت فاذهب فى الزحام
لنُصاب بالوطن البسيط وباحتمال الياسمين

واذهبْ إلى دمك المهيَّأ لانتشارك
واذهب إلى دمىَ الموحَّدِ فى حصارِك
لا وقتَ للمنفى . . .
وللصُوَرِ الجميلةِ فوق جدران الشوارع والجنائز
والتمنى
كتبتْ مراثيها الطيورُ وشرَّدتنى
ورمتْ معاطفها الحقولُ وجمعتنى
فاذهبْ بعيدًا فى دمى ! واذهب بعيدًا فى الطحين

لنُصاب بالوطن البسيط وباحتمال الياسمين
يا أحمدُ اليومىّ !

يا اسم الباحثين عن الندى وبساطة الأسماء
يا اسم البرتقالهْ
يا أحمد العادىّ !
كيف مَحَوْتَ هذا الفارقَ اللفظىَّ بين الصخر والتفّاح
بين البندقية والغزالهْ !
لا وقت للمنفى وأغنيتى . .
سنذهب فى الحصار
حتى نهايات العواصم
فاذهبْ عميقًا فى دمى
اذهبْ براعمْ
واذهبْ عميقًا فى دمى
اذهبْ خواتم
واذهبْ عميقًا فى دمى
اذهب سلالم
يا أحمدُ العربىُّ . . قاومْ !
لا وقت للمنفى وأغنيتى . .
سنذهب فى الحصار

حتى رصيف الخبز والأمواجِ
تلك مساحتى ومساحة الوطن - المُلازِمْ
موتٌ أمام الحُلْمِ
أو حلم يموتُ على الشعار
فاذهب عميقًا فى دمى واذهب عميقًا فى الطحين
لنُصابَ بالوطن البسيط وباحتمال الياسمين

... ولَهُ انحناءاتُ الخريف
لَهُ وصايا البرتقال
لَهُ القصائد فى النزيف
لَهُ تجاعيدُ الجبال
لَهُ الزفافُ
لَهُ المجلاّتُ المُلوَّنَةُ
المرائى المطمئنةُ
ملصقات الحائط
العَلَمُ
التقدُّمُ
فرقةُ الإِنشاد
مرسوم الحداد

وكل شيء كل شيء كل شيء
حين يعلن وجهه للذاهبين إلى ملامح وجههِ
يا أحمدُ المجهولُ !
كيف سكَنْتَنا عشرين عامًا واختفيتَ
وظَلَّ وجهُكَ غامضًا مثل الظهيرهْ
يا أحمد السرىّ مثل النار والغابات
أشهرْ وجهك الشعبىَّ فينا
واقرأ وصيَّتكَ الأخيرهْ ؟
يا أيها المتفرّجون ! تناثروا فى الصمت
وابتعدوا قليلاً عنه كى تجدوهُ فيكم
حنطةً ويدين عاريتين
وابتعدوا قليلاً عنه كى يتلو وصيَّتَهُ
على الموتى إذا ماتوا
وكى يرمى ملامحَهُ
على الأحياء ان عاشوا !

أخى أحمد !
وأنتَ العبدُ والمعبود والمعبد
متى تشهدْ
متى تشهدْ
متى تشهدْ ؟

١٥ قصيدة الأرض

-١-

فى شهر آذارَ ، فى سَنَةَ الانتفاضةِ ، قالت لنا الأرضِ
أسرارَها الدمويَّةَ . فى شهر آذارَ مَرَّتْ أمام
البنفسج والبندقية خمسُ بناتٍ . وقَفْنَ على باب
مدرسة ابتدائيَّةٍ ، واشتعلن مع الورد والزعترِ
البلديِّ . افتتحنَ نشيدَ التراب . دخلن العناقَ
النهائيَّ - آذارُ يأتى إلى الأرض من باطن الأرض
يأتى ، ومن رقصة الفتياتِ - البنفسجُ مال قليلاً
ليعبر صوتُ البنات . العصافيرُ مَدَّتْ مناقيرها
فى اتجاه النشيد وقلبى .

أنا الأرضُ

والأرضُ أنتِ

خديجةُ ! لا تغلقى الباب

لا تدخلي في الغياب

سنطردهم من إناء الزهور وحبل الغسيل

سنطردهم عن حجارة هذا الطريق الطويل

سنطردهم من هواء الجليل .

وفي شهر آذار ، مَرَّتْ أمام البنفسج والبندقية خمسُ

بنات . سقطن على باب مدرسة ابتدائيَّةٍ . للطباشير

فوق الأصابع لونُ العصافير . في شهر آذار قالت

لنا الأرض أسرارها .

- ١ -

أسمّي التراب امتدادًا لروحي

أسمّي يديَّ رصيفَ الجروحِ

أسمّي الحصى أجنحهْ

أسمّي العصافير لوزًا وتين

أسمّي ضلوعي شجرْ

وأستلُّ من تينة الصدر غصنًا

وأقذفه كالحجرْ

وأنسف دبّابة الفاتحين .

-٢-

وفى شهر آذار ، قبل ثلاثين عامًا وخمس حروب ،

وُلدتُ على كومة من حشيش القبور المضىء .

أبى كان فى قبضة الانجليز . وأُمّى تربّى جديلتها

وامتدادى على العشبِ . كنتُ أُحبُّ « جراح

الحبيب » وأجمعها فى جيوبى ، فتذبل عند الظهيرة ،

مَرَّ الرصاصُ على قمرى الليلكىِّ فلم ينكسرْ

غير أن الزمان يَمرُّ على قَمَرى الليلكىِّ فيسقط فى

القلب سهوًا . . .

وفى شهر آذار نمتدُّ فى الأرضِ

فى شهر آذار تنتشر الأرض فينا

مواعيدَ غامضةً

واحتفالاً بسيطًا

ونكتشف البحرَ تحت النوافذِ

والقمرَ الليلكيَّ على السرو

فى شهر آذار ندخل أول سجن وندخل أول حُبٍّ ،

وتنهمرُ الذكرياتُ على قرية فى السياج

وُلدنا هناك ولم نتجاوز ظلال السفرجلِ

كيف تفرّين من سُبُّلى يا ظلال السفرجل ؟

فى شهر آذار ندخل أول حُبَّ

وندخل أول سجن

وتنبلج الذكرياتُ عشاء من اللغة العربية

قال لىَ الحبُّ يومًا : دخلتُ إلى الحلم وحدى فضعتُ

وضاعَ بىَ الحلمُ . قلتُ : تكاثر ! تَرَ النهر يمشى

إليك .

وفى شهر آذار تكتشف الأرض أنهارها

- ٢ -

بلادى البعيدةَ عنى . . . كقلبى !

بلادى القريبةَ منى . . . كسجنى !

لماذا أغنّى

مكانًا ، ووجهى مكانْ ؟

لماذا أُغنى

لطفلٍ ينامُ على الزعفران

وفى طرف النوم خنجر

وأُمّى تناولنى

صدرها

وتموتُ أمامى

بنسمة عنبر ؟

- ٣ -

وفى شهر آذار تستيقظ الخيلُ

سيدتى الأرضَ !

أىُّ نشيد سيمشى على بطنكِ المتموِّج ، بعدى ؟

وأىُّ نشيد يلائمُ هذا الندى والبَخُورَ

كأنَّ الهياكل تستفسر الآن عن أنبياء فلسطينَ فى بدئها

المتواصل

هذا اخضرارُ المدى واحمرارُ الحجارةِ -

هذا نشيدى

وهذا خروجُ المسيح من الجرح والريح

أخضرَ مثل النبات يُغطّى مساميرَهُ وقيودى

وهذا نشيدى

وهذا صعود الفتى العربىِّ إلى الحلم والقدس . . .

فى شهر آذار تستيقظ الخيلُ .

سيدتى الأرضَ !

والقممُ اللولبيَّةُ تبسطها الخيلُ سجّادةً للصلاة السريعة

بين الرماح وبين دمى .

نصفَ دائرة ترجع الخيلُ قوسًا

ويلمع وجهى ووجهك حيفا وعُرسا

وفى شهر آذار ينخفض البحرُ عن أرضنا المستطيلة مثل

حصان على وترِ الجنسِ .

فى شهر آذار ينتفض الجنسُ فى شجر الساحل العربىّ .

وللموج أن يحبس الموجَ . . أن يتموَّجَ . . . أن

يتزوَّج . . . أو يتضرَّج بالقطن

أرجوكِ - سيدتي الأرضَ - أن تَسكنيني وأن تُسكنيني
صهيلَكِ
أرجوكِ أن تدفنيني مع الفتيات الصغيرات بين البنفسج
والبندقيةِ
أرجوكِ - سيدتي الأرضَ - أن تُخْصبي عُمْرِيَ المتمايلَ
بين سؤالين : كيف ؟ وأين ؟
وهذا ربيعي الطليعيُّ
هذا ربيعي النهائيُّ
في شهر آذار زوَّجت الأرض أشجارها .

- ٣ -

كأني أعودُ إلى ما مضى
كأني أسيرُ أمامي
وبين البلاط وبين الرضا
أُعيد انسجامي .
أنا ولدُ الكلمات البسيطهْ
وشهيدُ الخريطهْ

أنا زهرة المشمش العائليّهْ .

فيا أيها القابضون على طرف المستحيل

من البدء حتى الجليل

أعيدوا إليَّ يدىً

أعيدوا إليَّ الهويَّهْ !

- ٤ -

وفى شهر آذار تأتى الظلال حريريةً والغزاةُ بدون ظلالِ

وتأتى العصافيرُ غامضةً كاعتراف البنات

وواضحةً كالحقول

العصافيرُ ظلُّ الحقول على القلب والكلمات .

خديجةُ !

- أين حفيداتك الذاهبات إلى حبِّهن الجديد ؟

- ذهبن ليقطفن بعض الحجارة -

قالت خديجةُ وهى تحثُّ الندى خلفهنَّ .

وفى شهر آذار يمشى التراب دمًا طازجًا فى الظهيرة . . .

خمسُ بنات يخبِّئنَ حقلاً من القمح تحت الضفيرة . .

يقرأن مطلع أُنشودة عن دوالى الخليل . ويكتبن
خمس رسائل :
تحيا بلادى
من الصّفْرِ حتى الجليل
ويحلمن بالقدس بعد امتحان الربيع وطرد الغزاة .
خديجةُ ! لا تغلقى الباب خلفك
لا تذهبى فى السحاب
ستمطر هذا النهار
ستمطر هذا النهار رصاصًا
وفى شهر آذار ، فى سنةِ الانتفاضة ، قالت لنا الأرض
أسرارها الدمويّةَ : خمسُ بنات على باب مدرسة
ابتدائيةٍ يقتحمن جنود المظلات . يسطع بيت
من الشعر أخضرَ . . أخضرَ . خمسُ بنات على
باب مدرسة ابتدائية ينكسرن مرايا مرايا
البنات مرايا البلاد على القلبِ . . .
فى شهر آذار أحرقت الأرضُ أزهارها .

- ٤ -

أنا شاهدُ المذبحهْ

وشهيدُ الخريطهْ

أنا ولدُ الكلمات البسيطهْ

رأيتُ الحصى أجنحهْ

رأيت الندى أسلحه

عندما أغلقوا باب قلبى عليّا

وأقاموا الحواجز فيّا

ومنع التجوُّل

صار قلبى حارهْ

وضلوعى حجارهْ

وأطلّ القرنفل

وأطلّ القرنفل

-٥-

وفى شهر آذار رائحةٌ للنباتات . هذا زواجُ العناصرِ .

« آذار أقسى الشهور » وأكثرُها شَبَقًا . أىُّ

سيفٍ سيعبر بين شهيقى وبين زفيرى ولايتكسَّرُ !
هذا عناقى الزراعىُّ فى ذروة الحبِّ . هذا انطلاقى
إلى العمر .
فاشتبكى يا نباتاتُ واشتركى فى انتفاضة جسمى ، وعودة
حلمى إلى جسدى .
سوف تنفجر الأرض حين أُحقِّقُ هذا الصراخ المكبَّلَ
بالرىِّ والخجل القروىِّ .
وفى شهر آذار نأتى إلى هَوَس الذكريات ، وتنمو علينا
النباتاتُ صاعدةً فى اتجاهات كلِّ البدايات . هذا
نموُّ التداعى . أُسمّى صعودى إلى الزنزلخت التداعى .
رأيتُ فتاةً على شاطىء البحر قبل ثلاثين عامًا
وقلت : أنا الموجُ ، فابتعدتْ فى التداعى . رأيتُ
شهيدينِ يستمعانِ إلى البحر : عكا تجىء مع الموج .
عكا تروح مع الموجِ . وابتعدا فى التداعى .
ومالت خديجةُ نحو الندى ، فاحترقتُ ، خديجةُ ! لا
تغلقى الباب !

إنَّ الشعوب ستدخل هذا الكتاب وتأفل شمس أريحا

بدون طقوس .

فيا وَطَنَ الأنبياء . . تكَاملْ !

ويا وطن الزراعين . . . تكامل

ويا وطن الشهداء . . . تكامل

ويا وطن الضائعين . . . تكامل

فكلُّ شِعاب الجبال امتدادٌ لهذا النشيد ،

وكلُّ الأناشيد فيك امتداد لزيتونةٍ زملّتنى .

- ٥ -

مساء صغير على قرية مُهملهْ

وعينان نائمتانْ

أعود ثلاثين عامًا

وخمسَ حروب

وأشهد أن الزمانْ

يخبِّىءُ لى سنبلهْ

يغنّى المغنّى

عن النار والغرباء

وكان المساء مساء

وكان المغنّى يُغَنّى

ويستجوبونه :

لماذا تغنّى ؟

يردُّ عليهم :

لأنّى أُغَنّى

وقد فتّشوا صدرَهُ

فلم يجدوا غير قلبهْ

وقد فتشوا قلبَهُ

فلم يجدوا غير شعبهْ

وقد فتّشوا صوتَهُ

فلم يجدوا غير حزنهْ

وقد فتَّشوا حزنَهُ

فلم يجدوا غير سجنْه

وقد فتَّشوا سجنَهُ

فلم يجدوا غير أنفسهم فى القيود

وراء التلال ينام المغنّى وحيدًا

وفى شهر آذار

تصعد منه الظلال

-٦ و 6-

أنا الأملُ السهلُ والرحبُ - قالت لىَ الأرضُ . والعشبُ
مثل التحيَّةِ فى الفجر

هذا احتمال الذهاب إلى العمر خلف خديجةَ . لم يزرعونى
لكى يحصدونى

يريد الهواء الجليلىُّ أن يتكلّم عنى ، فينعس عند خديجة

يريد الغزال الجليلىُّ أن يهدم اليوم سجنى ، فيحرس ظل
خديجةَ وهى تميلُ على نارها

يا خديجةُ ! إنى رأيتُ . . . وصدَّقتُ رؤياىَ . تأخذنى
في مداها وتأخذنى فى هواها . أنا العاشقُ الأبدىُّ ،
السجين البديهىُّ . يقتبسُ البرتقال اخضرارى ويصبح
هاجسَ يافا
أنا الأرض منذ عرفتُ خديجةَ
لم يعرفونى لكى يقتلونى
بوسع النبات الجليلىّ أن يترعرعَ بين أصابع كفى ويرسم
هذا المكان الموزَّعَ بين اجتهادى وحبٍّ خديجةَ
هذا احتمال الذهاب الجديد إلى العمر من شهر آذار حتى
رحيل الهواءَ عن الأرضِ
هذا التراب ترابى
وهذا السحاب سحابى
وهذا جبين خديجهْ
أنا العاشق الأبدىُّ – السجين البديهىُّ
رائحةُ الأرض تُوقظنى فى الصباح المبكِّر . . .
قيدى الحديدىُّ يوقظها فى المساء المبكر

هذا احتمال الذهاب الجديد إلى العمر ،

لايسأل الذاهبون إلى العمر عن عمرهم

يسألون عن الأرض : هل نَهَضَتْ

طفلتى الأرضَ !

هل عرفوكِ لكى يذبحوكِ ؟

وهل قَيَّدوكِ بأحلامنا فانحدرتِ إلى جرحنا فى الشتاء ؟

وهل عرفوكِ لكى يذبحوكِ ؟

وهل قيَّدوكِ بأحلامهم فارتفعتِ إلى حلمنا فى الربيعْ ؟

أنا الأرضُ . . .

يا أيها الذاهبون إلى حبة القمح فى مهدها

أحرثوا جَسَدى !

أيها الذاهبون إلى جبل النار

مرّوا على جسدى

أيها الذاهبون إلى صخرة القدس

مرّوا على جسدى

أيها العابرون على جسدى

لن تمروا

أنا الأرض فى جَسَدٍ

لن تمروا

أنا الأرض فى صحوها

لن تمروا

أنا الأرض . يا أيها العابرون على الأرض فى صحوها

لن تمروا

لن تمروا

لن تمروا !

*

١٦ عزف منفرد

لو عُدْتُ يومًا إلى ما كان ، هلْ أجِدُ
الشىءَ الذى كانَ والشىءَ الذى سيكونْ ؟
العزف منفردُ
والعزفُ منفردُ

*

من ألفِ أُغنيةٍ حاولْتُ أن أُولَدْ
بين الرماد وبين البحر . لم أجِدِ
الأُمَّ التى كانت الأُمَّ التى تَلِدُ
البحر يبتعدُ
والعزفُ منفردُ

*

صدَّقتُ روحىَ لَمَّا قالتِ التصقِ
بالحائط الساقطِ ، استسلمتُ للشَّبَقِ

ولو كتبتُ على الصفصاف نوعَ دمى
لجاءتِ الريحُ عكسَ الريح فى وَرَقِ
الصفصافِ ، والصفصافُ يَتَّقدُ
والعزفُ منفردُ

*

لو عُدْتُ يومًا إلى ما كان لن أجدا
غيرَ الذى لم أجدْهُ عندما كُنْتُ
يا ليتنى شَجَرٌ كى أستعيد مدى
الراوى . وأُسندَ أُفقى حيثما مِلتُ
وليتنى شَجَرٌ لا يستطيل سُدى . .
صَدَّقتُ حُلْمىَ ؟ لا . صَدَّقْتُ ما يَرِدُ
والعزفُ منفردُ

*

بَحْرٌ أمامىَ ، والجدرانُ ترجمنى
دعْ عنكَ نفسكَ واسلمْ أيها الولَدُ .
البحر أصغرُ منِّى كيف يحملنى ؟
والبحر أكبر منى كيف أحملهُ ؟

ضاقتْ بيَ اللغةُ ، استسلمتُ للسُّفُنِ
وغصٌ بالقلبِ حين امتصَّهُ الزَبَدُ
بحرٌ عليَّ . . وفيَّ الأبيضُ – الأَبَدُ .
والعزفُ منفردُ

*

بَعْدَ البعيد بعيدٌ كُلَّما ابتعدا
صارَ البعيدُ قريبًا من خطوط يدىْ
أُجسُّهُ وأراهُ واحدًا أحدا
على هواءٍ لَهُ إيقاعُ أغنيتى .
سماؤنا فوقنا واستجمعت بَدَدا ؟
لو عدت يومًا إلى ما كان من بلدِ
الزيتون ، صحْتُ : تباطأْ أيها البَلَدُ .
والعزفُ منفردُ

*

لو عُدْتُ يومًا إلى ما كان ، لن أجدا
الحُبَّ الذى كان والحبَّ الذى سيكونْ .
من ألفِ زنبقة حاولتُ أن أَعدا

القلبَ القديمَ بقلبٍ توأمٍ ، وجنون
حبيبتى ! يا امتثالَ الروحِ للجسدِ
ويا نهايةَ ما لاينتهى أبدا
قطعتِ شريان مَوْجى يا ابنةَ الزَبَدِ
قطعتِ صوتىَ عن تاريخ أغنيتى .
وددتُ لو أجد الإيقاع ، لو أجِدُ .
والعزفُ منفردُ

*

قلتُ : الوداع لما يأتى ولا يصِلُ
ورحتُ أبحثُ عمَّا غابَ من قمرى .
دعْ عنكَ موتكَ ، وارحل أيها الرجلُ
وارحل وهاجْر وسافْر داخلَ السَفَرِ
ليس المكان مكانًا حين تفقدهُ ،
ليس المكان مكانًا حينَ تنشُدهُ .
وكُلَّما حطَّ دُورِىٌّ على حَجَرِ
بحثتَ للقلب عن حوَّاءَ تُرْشِدهُ
وكلما مالَ غُصْنٌ صحتُ : كم عَدَدُ

الهجراتِ ؟ كم عَدَدُ الأموات يا عَدَدُ .
والعزفُ منفردُ

*

.. وعابر في بلادى الناس ، لا ذكرى
تركتُ فيها ولا ذكرى حملتُ لها
كأننى لم أكن فيها ولم أرها .
خرجتُ أدخل أسمائى ، فبعثرها
النسيانُ ، وانقسمتْ نفسى لتُشهرها .
أمُرُّ بالشىء كاللاشىءِ .. لا أجِدُ
الشىء الذى يُوجَدْ
من ألف أغنيةٍ حاولتُ أن أُولدْ
لو عدتُ يومًا إلى نفسى فهلْ أجِدُ
النفسَ التى كانتِ النفسَ التى كانت ؟
ياليتنى ولَدُ ، يا ليتنى ولَدُ ،
والعزفُ منفردُ

*

١٧ آن للشاعر أن يقتل نفسه

آن للشاعرِ أن يقتل نفسَهْ

لا لشيء ، بل لكى يقتل نَفْسَهْ .

*

قال : لن أسمح للنحلة أن تمتصَّنى

قال : لن أسمح للفكرة أن تَقْتَصَّ منِّى .

قال : لن أسمح للمرأة أن تتركنى حيّاً على ركبتها .

*

من ثلاثين سَنَهْ

يكتب الشعر وينسانى . وقعنا عن جميع الأحصنهْ

ووجدنا الملح فى حبةِ قمحٍ ، وهو ينسانى . خسرنا الأمكنهْ

وهو ينسانى . أنا الآخر فيه .

*

كُلُّ شيء صورةٌ فيه . أنا مرآتُهُ
كُلُّ موتٍ صورةٌ . كُلُّ جَسَدْ
صورةٌ . كُلُّ رحيل صورة . كُلُّ بَلَدْ
صورةٌ . قلتُ كفى متنا تمامًا ، أين إنسانيتى ؟ أين أنا ؟
قال : لا صورة إلاَّ للصورَ .

*

من ثلاثين شتاءْ
يكتب الشعر ويبنى عالمًا ينهار حولهْ
يجمع الأشلاء كى يرسم عصفورًا وبابًا للفضاءْ
كُلَّما انهار جدارٌ حولنا شاد بيوتًا فى اللغهْ
كلما ضاق بنا البرُّ بنى الجنة ، وامتدَّ بجُملهْ
من ثلاثين شتاء ، وهو يحيا خارجى .

*

قال : إنْ جئنا إلى أُولى المُدُنْ
ووجدناها غيابًا
وخرابًا

لا تُصدِّقْ

لاتُطَلِّقْ

شارعًا سرنا عليه . . وإليهِ .

تكذب الأرضُ ولا يكذب حُلْمٌ يتدلى من يديهِ .

*

من ثلاثين خريفًا

يكتب الشعر ولا يحيا ولايعشق إلاَّ صورَهْ

يدخل السجنَ فلا يُبصر إلاَّ قمرهْ

يدخلُ الحبَّ فلا يَقطِفُ إلاَّ ثمرهْ

قلتُ : ما المرأةُ فينا ؟ قال لى : تُفَّاحةٌ للمغفرةْ .

أين إنسانيَّتى ؟ صحتُ

فسدَّ الباب كى يبصرنى خارجَهُ . يصرخ بى :

من فكرةٍ فى صورةٍ فى سُلَّم الإيقاع تأتى المرأةُ المنتظرهْ .

*

آن للشاعر أن يخرج منى للأبد .

ليس قلبى من ورقْ

آن لى أن أفترقْ

عن مراياىَ وعن شعب الورقْ .

آن للنحلة أن تخرج من وردتها نحو الشفقْ

آن للوردة أن تخرج من شوكتها كى تحترقْ

آن للشوكة أن تدخل قلبى كُلَّهُ

كى أرى قلبى ، وكى أسمع قلبى ، وأحسَّهْ .

آن للشاعر أن يقتل نفسهْ ،

لا لشىء ،

بل لكى يقتل نفسهْ .

*

١٨ رأيت الوداع الأخير

رَأَيْتُ الوَدَاعَ الأَخِيرَ : سَأُودِعُ قَافِيَةً مِنْ خَشَبْ
سَأُرْفَعُ فَوْقَ أَكُفِّ الرِّجَال ، سَأُرْفَعُ فَوْقَ عُيُونِ النِّسَاءْ
سَأُرْزَمُ فِى عَلَمٍ ، ثُمَّ يُحْفَظُ صَوْتِىَ فِى علَبِ الأَشْرِطَهْ
سَتُغْفَرُ كُلُّ خَطَايَاىَ فِى سَاعَةٍ ، ثُمَّ يَشْتُمُنِى الشُّعَرَاء .
سَيَذْكُرُ أَكْثَرُ مِنْ قَارِىءٍ أَنَّنِى كُنْتُ أَسْهَرُ فِى بَيْتِهِ كُلَّ لَيْلَهْ .
سَتَأْتِى فَتَاةٌ وتَزْعُمُ أَنِّى تَزَوَّجْتُهَا مُنْذُ عِشْرِينَ عَامًا . . وأكثر .
سَتُرْوَى أَسَاطِيرُ عَنِّى ، وَعَنْ صَدَفٍ كُنْتُ أَجْمَعُهُ مِنْ بِحَارٍ بَعِيدَهْ .
سَتَبْحَثُ صَاحِبَتِى عَنْ عَشِيقٍ جَدِيدٍ تُخَبِّئُهُ فِى ثِيَابِ الحِدَادْ .
سَأُبْصِرُ خَطَّ الجَنَازَةِ ، وَالمَارَّةَ المُتْعَبِينَ مِنَ الانْتِظَارْ .

وَلَكِنَّنِى لاَ أَرَى القَبْرَ بَعْدُ . أَلاَ قَبْرَ لِى بَعْدَ هَذَا التَّعَبْ ؟

*

١٩ وداعا لما سوف يأتى

وَدَاعًا لِمَا سَوْفَ يَأتِى بِهِ الوَقْتُ بَعْدَ قَلِيلٍ . . وَدَاعَا .

وَدَاعًا لِمَا سَوْفَ تَأتِى بِهِ الأمْكِنَهْ . .

تَشَابَهَ فى اللَّيْلِ لَيْلِى ، وَفِى الرَّمْلِ رَمْلِى ، وَمَا عَادَ قَلْبِى مَشَاعَا .

وَدَاعًا لِمَنْ سَأرَاهَا بِلادًا لِنَفْسِى ؛ لِمَنْ سَأرَاهَا ضِياعَا .

سَأعْرِفُ كَيْفَ سَأحْلُمُ بَعْدَ قَلِيلٍ ، وَكَيْفَ سَأحْلُمُ بَعْدَ سَنَهْ ،

وَأعْرِفُ مَا سَوْفَ يَحْدُثُ فى رَقْصَةِ السَّيْفِ وَالسَّوْسَنَهْ ،

وَكَيْفَ سَيَخْلَعُ عَنِّى القِنَاعُ القِنَاعَا .

أأسْرِقُ عُمْرِى لأحْيَا دَقَائِقَ أُخْرَى ؛ دَقَائِقَ بَيْنَ السَّرادِيبِ وَالمِئْذَنَهْ

لأشْهَدَ طَقْسَ القِيامَةِ فى حَفْلَةِ الكَهَنَهْ ،

لأعْرِفَ مَا كُنتُ أعْرِفُ ؟ إنِّى رَأيْتُ . . رَأيْتُ الوَدَاعَا .

*

٢٠ بقاياك للصقر

بَقَايَاكَ لِلصَّقرِ . مَنْ أَنْتَ كَىْ تَحْفرَ الصَّخرَ وَحْدَكْ ،

وتَعبرَ هَذَا الفَرَاغَ النِّهَائِىَّ ، هَذَا البَيَاضَ النِّهَائِىَّ ؟ مَرْجَى !

سَتَصْطَفُّ حَوْلَكَ خَرُّوبَتَانِ ، وأَرْمَلَتَانِ ، وَصَمْتُ الفَضَاءِ المُجَوَّفِ بَعْدَكْ

شُهُودًا عَلَى العَبَثِ البَشَرِى ؛ شُهُودًا عَلَى المُعْجِزَهْ .

أَفِى مِثْلِ هَذَا الزَّمَانِ تُصَدِّقُ ظِلَّكَ ، فِى مِثْلِ هَذَا الزَّمَانِ تُصَدِّقُ وِرْدَكْ ؟

وَتَلْفظُ إِسْمَكَ واسْمَ بِلاَدِكَ واسْمِى مَعًا

بِلاَ خَطَإٍ ، يَا رَفِيقِى ، كَأَنَّكَ تَمْلِكُ شَيْئًا ، كَأَنَّكَ تَمْلِكُ وَعْدَكْ !

سَنُخْلِى لَكَ المَسْرَحَ الدَّائِرِىَّ . تَقَدَّمْ إِلَى الصَّقرِ وَحْدَكْ ،

فَلاَ أَرْضَ فِيكَ لِكَىْ تَتَلاَشَى ،

وَلِلصَّقرِ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْكَ ، وَلِلصَّقْرِ أَنْ يَتَقَمَّصَ جِلْدَكْ .

*

٢١ أنا يوسف يا أبى

أَنَا يُوسُفٌ يَا أَبِى . يَا أَبِي ، إِخوَتِى لاَيُحِبُّونَنِى ، لاَ يُرِيـــــدُونَنِى بَيْنَهُم يَا أَبِى . يَعْتَدُونَ عَلَىَّ وَيَرْمـــونَنِى بِالحَصَى وَالكَلاَمِ . يُرِيدُونَنِى أَنْ أَمُوتَ لِكَىْ يَمْدَحُونِى . وَهُمْ أَوْصَدُوا بَابَ بَيْتِكَ دُونِى . وَهُمْ طَرَدُونِى مِنَ الحَقْلِ . هُمْ سَمَّمُوا عِنَبِى يَا أَبِى . وَهُمْ حَطَّمُوا لُعَبِى يَا أَبِى . حِيـنَ مَرَّ النَّـسِيـمُ وَلاَعَبَ شَعْرِىَ غَارُوا وَثَارُوا عَلَىَّ وَثَارُوا عَلَيْكَ ، فَمَاذَا صَنَعْتُ لَهُمْ يَا أَبِى ؟ الـــفَرَاشَاتُ حَطَّتْ عَلَى كَتِفَىَّ ، وَمَالَتْ عَلَىَّ الـــسَّنَابِلُ ، وَالطَّيْرُ حَطَّتْ على راحـــتَىَّ . فَمَاذَا فَعَلْتُ أَنَا يَا أَبِى ، وَلِمَاذَا أَنَا ؟ أَنْتَ سَمَّيْتَنِى يُوسُفًا ، وَهُمُو أَوْقَعُونِىَ فِى الجُبِّ ، وَاتَّهَمُوا الـذِّئْبَ ؛ وَالـذِّئْبُ أَرْحَمُ مِنْ إِخوَتِى . . أبتِ ! هَلْ جَنَيْتُ عَلَى أَحَدٍ عِنْدَمَا قُلْتُ إِنِّى : رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ، والشَّمْسَ والقَمَرَ ، رَأَيْتُهُم لِى سَاجِدِينْ .

*

٢٢ أريد مزيدًا من العمر

أُريدُ مزيدًا مِنَ العُمْرِ كىْ نلْتقِى ، ومَزِيدًا مِنَ الاغْترَابْ
ولَوْ كَانَ قَلْبِى خَفيفًا لأَطْلَقْتُ قَلْبِى عَلَى كُلِّ نَخْلَهْ .

أُرِيدُ مَزِيدًا مِنَ القَلْبِ كَىْ أَسْتَطِيعَ الوُصُولَ إِلَى سَاقِ نَخْلَهْ .
ولَوْ كَانَ عُمْرِى مَعِى لانْتَظَرْتُكِ خَلْفَ زُجَاجِ الغِيَابْ .

أُرِيدُ مَزِيدًا مِنَ الأُغْنِيَاتِ لأَحْمِلَ مَلْيُونَ بَابٍ . . . وبَابْ
وأَنْصبَهَا خَيْمَةً فِى مَهَبِّ البِلاَدِ ، وأَسْكُنَ جُمْلَهْ .

أُرِيدُ مَزِيدًا مِنَ السَّيِّدَاتِ لأَعْرِفَ آخِرَ قُبْلَهْ ،
وأَوَّلَ مَوْتٍ جَمِيلٍ عَلَى خِنْجَرٍ مِنْ نَبِيذِ السَّحَابْ .

أُرِيدُ مَزِيدًا مِنَ العُمْرِ كَىْ يَعْرِفَ القَلْبُ أَهْلَهْ ،
وكَىْ أَسْتَطِيعَ الرُّجُوعَ إِلَى . . . سَاعَةٍ مِنْ تُرَابْ .

٢٣ ألا تستطعين أن تطفئى قمراً

أَلاَ تَسْتَطِيعِينَ أَنْ تُطْفِئِى قَمَرًا وَاحِدًا كَىْ أَنَامْ ؟
أَنَامُ قَلِيلاً عَلَى رُكْبَتَيْكِ ، فَيَصْحُو الكَلاَمْ
لِيَمْدَحَ مَوْجًا مِنَ القَمْحِ يَنْبُتُ بَيْنَ عُرُوقِ الرُّخَامْ ؟

تَطِيرِينَ مِنِّى غَزَالاً يَخَافُ ، وَيَرْقُصُ حَوْلِى . يَخَافُ وَيَرْقُصُ حَوْلِى
وَلاَ أَسْتَطِيعُ اللِّحَاقَ بِقَلْبٍ يَعَضُّ يَدَيْكِ وَيَصْرُخُ : ظَلِّى
لأَعْرِفَ مِنْ أَىِّ رِيحٍ يَهُبُّ عَلَىَّ سَحَابُ الحَمامْ .

أَلا تَسْتَطِيعِينَ أَنْ تُطْفِئِى قَمَرًا وَاحِدًا كَىْ أَرَى
غُرُورَ الغَزَالِ الأَشُورِىِّ يَطْعَنُ صَيَّادَهُ قَمَرَا
أُفَتِّشُ عَنْكِ فَلاَ أَهْتَدِى . أَيْنَ سُومَرُ فِىَّ . . وَأَيْنَ الشَامْ ؟

تَذَكَّرْتُ أَنِّى نَسِيْتُكِ . فَلْتَرْقُصِى فِى أَعَالِى الكَلاَمْ

*

٢٤ خريف جديد لامرأة النار

خَرِيفٌ جَدِيدٌ لامْرَأَةِ النَّارِ : كُونِى كَمَا خَلَقَتْكِ الأَسَاطِيرُ وَالشَّهَوَاتُ . وَكُونِى رَصِيفًا لِمَا يَتَسَاقَطُ مِنْ وَرْدَتِى . وَرِيَاحًا لِبَحَّارَةٍ لاَ يُرِيدُونَ أَنْ يُبْحِرُوا . كَمْ أُرِيدُكِ عِنْدَ هُبُوطِ الخَرِيفِ عَلَى الرُّوحِ ؛ كَمْ أَتَمَنَّى بَقَائِى شَرِيدًا عَلَى قَدَمٍ مِنْ حَرِيرِ المَدَائِحِ . كُونِى نِسَاءً لِقَلْبِى ، وأَسْمَاءَ عَيْنَىَّ كُونِى ، ونَافِذَةً لِلْحَدِيقَةِ كُونِى ، وَأَمَاً لِيَأْسِى مِنَ الأَرْضِ . كُونِى مَلاَئِكَتِى، أَوْ خَطِيئَةَ سَاقَيْنِ حَوْلِى ، أُحِبُّكِ قَبْلَ احْتِكَاكِ دَمِى بِالعَوَاصِفِ وَالنَّخْلِ ، كُونِى كَمَا كُنْتِ . كُونِى كَمَا لاَ تَكُونِينَ ، مُسِّى بِأَطْرَافِ ظَلِّكِ جِنَّ الأَنَاشِيدِ يَصْحُ الكَلاَمُ عَلَى غَسَلِ الشَّهَوَاتِ . أُحِبُّكِ ، أَوْ لاَ أُحِبُّكِ ، لاَ أَسْتَطِيعُ الرُّجُوعَ إِلَى بَلَدِى . لاَ أُرِيدُ الرُّجُوعَ إِلَى جَسَدِى . لاَ أُرِيدُ الرُّجُوعَ إِلَى أَحَدٍ بَعْدَ هَذَا الخَرِيفْ .

*

٢٥ سيأتى الشتاء الذى كان

سَيَأْتِى الشِّتَاءُ الَّذِى كَانَ . . . لِلْمَرَّةِ العَاشِرَةْ

فَمَاذَا سَأَفْعَلُ حِينَ يَجِىءُ الشِّتَاءُ الذى كَانَ ، مَاذَا سَأَفْعَلُ كَىْ لا أُمُوتَ

كَمَا مُتُّ ، مَا بَيْنَ قَلْبَيْنِ ، أَعْلَى مِنَ الغَيْمِ أَعْلَى . . وَأَعْلَى ؟

أُعِدُّ لَكِ الذِّكْرَيَاتِ ، وَأَفْتَحُ نَافِذَةً لِلْحَمامِ الْمُصَابِ بِنِسْيَانِ دفْلَى

وَأَلْمَسُ فَرْوَ غِيَابِك . . هَلْ كان فِى وَسْعِنَا أَنْ نُحِبَّ أَقَلَّ

لِنَفْرَحَ أَكْثَر ؟ هَلْ كَانَ فِى وسْعِنَا أَنْ نُحِبَّ أَقَلَّ . . أَقَلَّ ؟

نُعِيدُ إِلَى الحُبِّ أَشْيَاءَهُ : نُرْجِعُ الرُّوحَ لِلرُّوحِ ، نُرْجِعُ ظِلاً

إِلَى أَهْلِهِ . نَتَبَادَلُ أَسْمَاءَ نِسْيَانِنَا ، ثُمَّ نَرْجِعُ قَتْلَى . . وَأَحْلَى

نُعِيدُ إِلَى الحُبِّ أَشْيَاءَه ، زَهْرَةَ الوَقْتِ فِى جَسَدَيْنْ

وَلَكِنَّنَا لاَ نَعُودُ إِلَى نَفْسِنَا ، نَفْسِهَا ، مَرَّتَيْنْ ! . .

*

٢٦ هدنة مع المغول

أمام غابة السنديان

كائنات من السنْديان تُطيلُ الوقوفَ على التلّ . . قَدْ
يصعَدُ العُشْبُ من خبزنا نحوها إنْ تركنا المكانَ ، وقَدْ
يهبط اللازوردُ السماوىُّ منها إلى الظلِّ فوق الحصونْ .
مَنْ سيملأ فُخَّارنا بعدنا ؟ مَنْ يُغيِّرُ أعداءنا عندما يعرفونْ
أننا صاعدون إلى التلِّ كى نمدَحَ الله . .

فى كائناتٍ من السنديانْ ؟

*

كُلُّ شىء يدلُّ على عَبَث الريح ، لكننا لا نَهُبُّ هباءْ
ربَّما كان هذا النهارُ أَخفَّ علينا من الأمس ، نحن الذينْ
قد أطالوا المكوثَ أمام السماء ، ولم يعبدوا غير ما فَقَدُوا
من عبادتهمْ . ربَّما كانت الأرضُ أوسعَ من وَصفها . ربما

كان هذا الطريقُ دخولاً مع الريح . .

في غابة السنديانْ

*

الضحايا تَمُرُّ من الجانبيْن ، تقول كلامًا أخيرًا وتسقط في
عالَمٍ واحدٍ . سوف ينتصرُ النسْرُ والسنديانُ عليها ، فلا بُدَّ مِنْ
هُدْنَةٍ للشقائق في السهل كي تُخْفِيَ الميتين على الجانبين ، وكيْ
نَتَبَادَلَ بَعْضَ الشتائم قبل الوصول إلى التلّ . لا بُدَّ مِنْ
تَعَبٍ آدميّ يُحَوِّل تلك الخيولَ إلى . .

كائناتٍ من السنديانْ

*

الصدى واحدٌ في البراري : صدى . والسماءُ على حجر غربَةٌ
عَلَّقَتْها الطيورُ على لا نهايات هذا الفضاء ، وطارتْ . .
والصدى واحدٌ في الحروب الطويلة : أُمٌّ ، أبٌ ، وَلَدٌ صَدَّقوا
أنَّ خلف البحيرات خيلاً تعود إليهم مُطَهَّمةً بالرجاء الأخيرْ
فأعدُّوا لأحلامهم قهوةً تمنع النومَ . .

في شَبَح السنديانْ

*

كُلُّ حربٍ تُعَلِّمنا أن نحبَّ الطبيعةَ أكثرَ : بعد الحصارْ
نَعتَنى بالزنابقِ أكثرَ ، نقطف قُطْنَ الحنان من اللَوْزِ فى
شهر آذارَ . نزرع غاردينيا فى الرخام ، ونَسْقى نباتاتِ جيراننا
عندما يذهبون إلى صَيْد غزلاننا . فمتى تَضَعُ الحربُ أوزارها
كى نفُكَّ خُصُورَ النساء على التلّ . .

من عُقدة الرَّمز فى السنديانْ ؟

*

ليت أعداءَنا يأخذون مقاعدنا فى الأساطير ، كى يعلموا
كم نُحبُّ الرصيفَ الذى يكرهون . . ويا ليتهم يأخذونْ
ما لنا من نُحاس وبرْق . . لنأخذ منهم حرير الضجرْ
ليت أعداءنا يقرأون رسائلنا مرتين ، ثلاثًا . . ليعتذروا
للفراشة عن لعبة النار . .

فى غابة السنديانْ

*

كم أردنا السلامَ لسيِّدنا فى الأعالى . . لسيدنا فى الكُتُبْ
كم أردنا السلامَ لغازلة الصُوف . . للطفل قرب المغارةْ
لِهُواة الحياة . . لأولاد أعدائنا فى مخابئهمْ . . للمَغُولْ

عندما يذهبون إلى ليل زوجاتهم ، عندما يرحلونْ
عن براعم أزهارنا الآن . . عنَّا ،
وعن وَرق السنديانْ

*

الحروب تُعَلِّمنا أن نذوق الهواء وأن نمدح الماء . كَمْ
ليلةٌ سوف نفرح بالحُمُّص الصلْب والكستنا فى جيوب معاطفنا؟
أَمْ سننسى مهارتنا فى امتصاص الرذاذ ؟ ونسأل : هَلْ
كان فى وُسْع مَنْ مات ألاَّ يموت ليبدأ سيرتَهُ من هنا ؟
ربَّما . . ربَّما نستطيع مديح النبيذ ونرفعُ
نخبًا لأرملة السنديانْ

*

كُلُّ قَلْبٍ هنا لا يردُّ على الناى يسقط فى
شَرَك العنكبوت . تمهَّلْ تمهَّلْ لتسمع رَجْعَ الصدى
فوق خيل العَدُوّ ، فإنَّ المغُول يُحبُّون خمرتنا
ويريدون أن يَرتَدوا جلد زوجاتنا فى الليالى ، وأنْ
يأخذوا شعراء القبيلة أسرى ، وأنْ
يقطعُوا شَجَرَ السنديانْ

*

المغُول يريدوننا أن نكون كما يبتغون لنا أن نكونْ
حفنةً من هبوب الغبار على الصين أو فارسٍ ، ويريدوننا
أن نُحبَّ أغانيَهُمْ كُلَّها كى يَحُلَّ السلامُ الذى يطلبونْ . .
سوف نحفظ أمثالهم . . سوف نغفر أفعالَهُم عندما يذهبونْ
مَعَ هذا المساء إلى ريح أجدادهم
خلفَ أغنيةِ السنديانْ

*

لمْ يجيئوا لينتصروا ، فالخرافةُ ليست خرافتَهُمْ . إنهم يهبطونْ
من رحيل الخيول إلى غرب آسيا المريضِ ، ولايعرفونْ
أنَّ فى وسعنا أن نقاوم غازان - أرغون ألفَ سنَةْ
بَيْدَ أن الخرافةَ ليست خرافتَهُ . سوف يدخل عمَّا قليلْ
دينَ قتلاهُ كى يتعلَّم منهم كلامَ قُرَيش . .
ومعجزةَ السنديانْ

*

الصَّدَى واحدٌ فى الليالى . على قمّة الليل نُحْصى
النجومَ على صدر سيِّدنا ، عُمْرَ أولادنا - كبروا سَنَةً بعدنا -
غَنَمَ الأهل تحت الضباب ، وأعدادَ قتلى المغول ، وأعدادَنا

والصدى واحدٌ فى الليالى : سنرجع يومًا ، فلا بُدَّ من
شاعرٍ فارسىٍّ لهذا الحنين .

إلى لُغَةِ السنديانْ

*

الحرُوبُ تعلِّمنا أن نحبَّ التفاصيل : شكْلَ مفاتيحِ أبوابنا ،
أن نُمَشِّطَ حنطتنا بالرموش ، ونمشى خِفَافًا على أرضنا ،
أن نقدِّسَ ساعاتِ قبل الغروب على شجر الزَنْزَلَخْت . .
والحروبُ تُعَلِّمُنا أن نرى صورة الله فى كل شىء ، وأَنْ
نَتَحمَّل عبء الأساطير كى نُخْرِجَ الوحشَ .

من قصَّة السنديانْ

*

كم سنضحك من سُوس خُبْز الحروب ومن دُودِ ماء الحروب،
إذا ما انتصرنا نُعَلِّقُ أعلامنا السودَ فوق حبال الغسيلْ
ثم نَصنَع منها جواربَ . . أما النشيدُ ، فلا بُدَّ من رَفْعِهِ
فى جنازات أبطالنا الخالدين . . وأما السبايا ، فلا
بُدَّ من عتقهنَّ ، ولا بُدَّ من مَطَرٍ

فَوق ذاكرة السنديانْ

خَلْفَ هذا المساء نرى ما تبقَّى منَ الليل ، عما قليلْ
يشرب القَمَرُ الحُرُّ شایَ المُحَارب تحت الشجَرْ .
قَمَرٌ واحدٌ للجميع على الخندقين لَهُمْ ولنا ، هَلْ لَهُمْ
خلف تلك الجبال بيوتٌ من الطين ، شایٌ ، ونایٌ ؟ وهَلْ
عندهُمْ حَبَقٌ مثلنا يُرجع الذاهبين من الموت . . .
فی غابة السنديانْ ؟

*

. . وأخيرًا ، صعدْنا إلى التلِّ . ها نحن نرتفع الآن
فوق جذوع الحكاية . . ينبت عُشْبٌ جديد على دمنا وعلى دمهمْ
سوف نحشو بنادقنا بالرياحين ، سوف نُطَوِّق أعناقَ ذاك
الحمام بأوسمة العائدين . . ولكننا
لم نجد أحدًا يقبل السِلْم . . لا نحن نحن ولا غيرنا غيرنا
البَنادِقُ مكسورة . . والحمامُ يطير بعيدًا بعيدًا
لم نجد أحدًا ههُنا . .
لم نجد أحدًا . .
لم نجد غابة السنديانْ !

*

٢٨ أحد عشر كوكبا على آخر المشهد الأندلسى

I

فى المَساءِ الأخير على هذهِ الأرض

فى الْمَساءِ الأخيرِ على هذهِ الأرْضِ نَقْطَعُ أيَّامَنا
عَنْ شُجَيْراتِنا ، ونَعُدُّ الضُلوعَ الَّتى سَوْفَ نَحْمِلُها مَعَنا
وَالضُّلوعَ الَّتى سَوْفَ نَتْرُكُها ، ههُنا ... فى الْمَساءِ الأخيرْ
لا نُوَدِّعُ شيْئًا ، ولا نَجِدُ الْوَقْتَ كَىْ نَنْتَهى ...
كُلُّ شَىْءٍ يَظَلُّ على حالِهِ ، فَالْمكانُ يُبَدِّلُ أحْلامَنا
ويُبَدِّلُ زُوّارَه . فَجأةً لَمْ نَعُدْ قادرينَ على السُّخْرِيَة
فالْمكانُ مُعَدٌّ لِكَىْ يَسْتَضيفَ الْهَباءَ ... هُنا فِى الْمَساءِ الأخيرْ
تَتَمَلّى الْجِبالَ الْمُحيطَةَ بِالْغَيْمِ : فَتْحٌ ... وَفَتْحٌ مُضادّ
وَزَمانٌ قَديمٌ يُسَلِّمُ هذا الزّمانَ الْجَديدَ مَفاتيحَ أبْوابِنا

فَادْخلوا ، أَيُّها الْفاتِحونَ ، مَنازِلَنا واشْرَبوا خَمْرَنا
مِنْ مُوَشَّحِنا السَّهْلِ . فاللَّيْلُ نَحْنُ إذا انْتَصَفَ اللَّيْلُ ، لا
فَجْرَ يَحْمِلُهُ فارِسٌ قادِمٌ مِنْ نَواحى الأَذانِ الأَخيرْ . . .
شايُنا أَخْضَرٌ ساخِنٌ فَاشْرَبوهُ ، وَفُسْتُقُنا طازَجٌ فكُلوه
والأَسِرَّةُ خَضْراءُ مِنْ خَشَبِ الأَرْزِ ، فَاسْتَسْلِموا لِلنُّعاسْ
بَعْدَ هذا الْحِصارِ الطَّويلِ ، وَنامُوا على ريشِ أَحْلامِنا
الْمُلاءاتُ جاهِزَةٌ ، والْعُطورُ على الْبابِ جاهِزَةٌ ، وَالمرايا كَثيرَة
فَادْخُلوها لِنَخْرُجَ مِنْها تَمامًا ، وَعَمّا قَليلٍ سَنَبْحَثُ عَمّا
كانَ تاريخَنا حَوْلَ تاريخِكُمْ فى الْبِلادِ الْبَعيدَة
وَسَنَسْأَلُ أَنْفُسَنا فِى النِّهايَة : هَلْ كانَتِ الأَنْدَلُسْ
ههُنا أَمْ هناكَ ؟ على الأَرْضِ . . . أَمْ فى الْقَصيدَة ؟

II

كَيْفَ أَكْتُبُ فَوْقَ السَّحاب ؟

كَيْفَ أَكْتُبُ فَوْقَ السَّحابِ وَصِيَّةَ أَهْلى ؟ وَأَهْلى
يَتْرُكونَ الزَّمانَ كَما يَتْرُكونَ مَعاطِفَهُمْ فى الْبُيوتِ ، وَأَهْلى
كُلَّما شَيَّدوا قَلْعَةً هَدَموها لِكَىْ يَرْفَعوا فَوْقَها

خَيْمَةٌ لِلْحَنينِ إلى أوَّلِ النَّخلِ . أهْلى يَخُونونَ أهْلى
فى حُروبِ الدِّفاعِ عَنِ الْمِلْحِ . لكِنَّ غَرْناطَةَ مِنْ ذَهَب
مِنْ حَريرِ الْكَلامِ الْمُطَرَّزِ بِاللَّوْزِ ، مِنْ فِضَّةِ الدَّمْعِ فى
وَتَرِ الْعودِ . غَرْناطَةٌ لِلصُّعودِ الْكَبيرِ إلى ذاتِها . . .
وَلَها أنْ تكونَ كَما تَبْتَغى أنْ تكونَ : الْحَنينَ إلى
أىِّ شَىْءٍ مَضى أوْ سَيَمْضى : يَحُكُّ جَناحُ سُنونوَّةٍ
نَهْدَ امْرأةٍ فى السَّريرِ ، فَتَصْرُخُ : غَرْناطَةٌ جَسَدى
وَيُضَيِّعُ شَخْصٌ غَزالَتَهُ فى الْبَرارى ، فَيَصْرُخُ : غَرْناطَةٌ بَلَدى
وأنا مِنْ هُناكَ ، فَغَنِّى لِتَبْنى الْحَساسينُ مِنْ أضْلُعى
دَرَجًا لِلسَّماءِ الْقَريبَةِ . غَنِّى فُروسِيَّةَ الصَّاعِدينَ إلى حَتْفِهِمْ
قَمَرًا قَمَرًا فى زُقاقِ الْعشيقَةِ . غَنِّى طُيورَ الْحَديقَةِ
حَجَرًا حَجرًا . كَمْ أُحِبُّكِ أنْتِ الَّتى قَطَّعْتِنى
وَتَرًا وَتَرًا فى الطَّريقِ إلى لَيْلِها الحارِّ ، غَنِّى
لا صَباحَ لِرائحةِ الْبُنِّ بَعْدَكِ غَنِّى رَحيلى
عَنْ هَديلِ الْيَمامِ على رُكْبَتَيْكِ وَعَنْ عُشِّ روحى
فِى حُروفِ اسْمِكِ السَّهْلِ ، غَرْناطَةٌ لِلْغناءِ فَغَنِّى !

III

لى خلفَ السماءِ سماء...

لِيَ خَلْفَ السَّماءِ سَماءٌ لأَرْجِعَ ، لكنَّنى
لاَ أزالُ أُلَمِّعُ مَعْدِنَ هذا الْمكانِ ، وأَحْيا
ساعَةً تُبصِرُ الْغَيْبَ . أعْرِفُ أنَّ الزَّمانْ
لا يُحالِفُنى مَرَّتَيْنِ ، وأَعْرِفُ أنّى سأَخْرُجُ مِنْ
رايَتى طائِرًا لا يَحُطُّ على شَجَرٍ فى الْحَديقَةْ
سَوْفَ أخرُجُ مِنْ كُلِّ جِلْدى ، وَمِنْ لُغَتى
سَوْفَ يَهْبِطُ بَعْضُ الْكَلامِ عَنِ الْحُبِّ فى
شِعْرِ لوركا الَّذى سَوْفَ يَسْكُنُ غُرْفَةَ نَوْمى
ويَرى ما رأيْتُ مِنَ الْقمرِ الْبَدَوِيِّ . سأَخْرُجُ مِنْ
شَجَرِ اللَّوْزِ قُطْنًا على زَبَدِ الْبَحْرِ . مَرَّ الْغَريبْ
حاملاً سَبْعَمائَةِ عامٍ مِنَ الْخَيْلِ . مَرَّ الْغَريبْ
ههُنا ، كَيْ يَمُرَّ الْغَريبُ هناكَ . سأَخْرُجُ بَعْدَ قليل
مِنْ تَجاعيدِ وَقْتى غَريبًا عَنِ الشَّامِ وَالأَنْدَلُسْ
هذهِ الأَرْضُ لَيْسَتْ سَمائى ، ولكِنَّ هذا الْمَساءَ مَسائى

وَالْمفاتيحَ لى ، وَالْمآذِنَ لى ، وَالْمَصابِيحَ لى ، وأَنا
لِيَ أيْضًا . أنا آدَمُ الْجَنَّتَيْن ، فَقَدْتُهُما مَرَّتَيْن .
فَاطْرُدونى على مَهَلٍ ،
وَاقْتُلونى على عَجَلٍ ،
تَحْتَ زَيْتونَتى ،
مَعَ لوركا . .

IV

أنا واحدٌ من ملوكِ النهاية

. . . وأنا واحِدٌ مِنْ مُلوكِ النِّهايَة . . . أَقْفِزُ عَنْ
فَرَسى فى الشِّتاءِ الأخيرِ ، أنا زَفْرَةُ الْعَرَبىِّ الأخيرَةْ
لاَ أُطِلُّ على الآسِ فَوْقَ سُطوحِ الْبُيوتِ ، ولا
أَتَطَلَّعُ حَوْلى لِئَلاَّ يَرانى هُنا أَحَدٌ كانَ يَعْرِفُنى
كانَ يَعْرِفُ أنّى صَقَلْتُ رُخامَ الْكَلامِ لِتَعْبُرَ امْرأتى
بُقَعَ الضَّوْءِ حافِيَةً ، لا أُطِلُّ على اللَّيْلِ كَىْ
لا أرى قَمَرًا كانَ يُشْعِلُ أَسْرارَ غَرْناطَةَ كُلَّها
جَسَدًا جَسَدًا . لا أُطِلُّ على الظِّلِّ كَىْ لا أرى

أَحَدًا يَحْمِلُ اسْمى ويَرْكُضُ خَلْفى : خُذِ اسْمَكَ عَنّى
واعْطِنى فِضَّةَ الْحَوْرِ . لا أتَلَفَّتُ خَلْفى لِئَلاَّ
أتَذَكَّرَ أنّى مَرَرْتُ على الأرْضِ ، لا أرْضَ فى
هذهِ الأرْضِ مُنْذُ تَكَسَّرَ حَوْلى الزَّمانُ شَظايا شَظايا
لَمْ أكُنْ عاشِقًا كَىْ أُصَدِّقَ أنَّ الْمِياهَ مَرايا ،
مِثْلَما قُلْتُ لِلأصْدِقاءِ الْقُدامى ، ولا حُبَّ يَشْفَعُ لى
مُنْذُ قَبِلْتُ « مُعاهَدَةَ التيه » لَمْ يَبْقَ لى حاضِرٌ
كَىْ أمُرَّ غَدًا قُرْبَ أمْسى . سَتَرْفَعُ قَشْتالَةُ
تاجَها فَوْقَ مِئْذَنَةِ اللَّهِ . أسْمَعُ خَشْخَشَةً لِلْمَفاتيحِ فى
بابِ تاريخنا الذَّهَبىِّ ، وَداعًا لِتاريخنا ، هَلْ أنا
مَنْ سَيُغْلِقُ باب السَّماءِ الأخيرَ ؟ أنا زَفْرَةُ الْعَرَبىِّ الأخيرَةْ

V

ذاتَ يومٍ ، سأجلِسُ فوقَ الرَّصيف

ذاتَ يَوْمٍ سأجْلِسُ فَوْقَ الرَّصيفِ . . . رَصيفِ الْغَريبَة
لَمْ أكُنْ نَرْجِسًا ، بَيْدَ أنّى أُدافِعُ عَنْ صُورَتى
فى الْمَرايا . أما كُنْتَ يَوْمًا ، هُنا ، يا غَريبْ ؟

خَمْسُمائَةِ عامٍ مَضى وَانْقَضى ، وَالْقَطيعَةُ لَمْ تكْتَمِلْ
بَيْنَنا ، ههُنا ، والرَّسائِلُ لَمْ تَنْقَطِعْ بَيْنَنا ، وَالْحُروبْ
لَمْ تُغَيِّرْ حَدائِقَ غَرْناطَتى . ذاتَ يَوْمٍ أَمُرُّ بِأَقْمارِها
وَأَحُكُّ بِلَيْمونَةٍ رَغْبَتى . . . عانِقينى لأُولَدَ ثانِيَةً
مِنْ رَوائِحِ شَمْسٍ وَنَهْرٍ على كَتِفَيْكِ ، وَمِنْ قَدَمَيْنْ
تَخْمُشانِ الْمَساءَ فَيَبْكى حَليبًا لِلَيْلِ الْقَصيدَةْ . . .
لَمْ أَكُنْ عابِرًا فى كَلامِ الْمُغَنِّينَ . . . كُنْتُ كَلامَ
الْمُغَنِّينَ ، صُلْحَ أثينا وَفارِسَ ، شَرْقًا يُعانِقُ غَرْبًا
فى الرَّحيلِ إلى جَوْهَرٍ واحِدٍ . عانِقينى لأُولَدَ ثانِيَةً
مِنْ سُيوفٍ دِمَشْقِيَّةٍ فى الدَّكاكينِ . لَمْ يَبْقَ مِنّى
غَيْرُ دِرْعى الْقَديمَةِ ، سَرْجِ حِصانى الْمُذَهَّبِ . لَمْ يَبْقَ مِنّى
غَيْرُ مَخْطوطَةٍ لاِبْنِ رُشْدٍ ، وَطَوْقِ الْحَمامَةِ ، والتَّرْجَمات . . .
كُنْتُ أَجْلِسُ فَوْقَ الرَّصيفِ على ساحَةِ الأُقْحُوانَةْ
وأَعُدُّ الْحَماماتِ : واحِدَةً ، اثْنَتَيْنِ ، ثَلاثينَ . . . وَالْفَتَياتِ اللَّواتى
يتخاطَفْنَ ظِلَّ الشُّجَيْراتِ فَوْقَ الرُّخامِ ، وَيَتْرُكْنَ لى

وَرَقَ الْعُمْرِ أَصْفَرَ . مَرَّ الْخَرِيفُ عليَّ وَلَمْ أَنْتَبِهْ
مَرَّ كُلُّ الْخَرِيفِ ، وَتارِيخُنا مَرَّ فَوْقَ الرَّصِيفِ . . .

وَلَمْ أَنْتَبِهْ !

VI

لِلْحَقِيقَةِ وَجْهانِ وَالثَّلْجُ أَسْوَدُ

لِلْحَقِيقَةِ وَجْهانِ ، وَالثَّلْجُ أَسْوَدُ فَوْقَ مَدِينَتِنا
لَمْ نَعُدْ قادِرِينَ على الْيَأْسِ أَكْثَرَ مِمّا يَئِسْنا ،
وَالنِّهايَةُ تَمْشِي إلى السُّورِ واثِقَةً مِنْ خُطاها
فَوْقَ هذا الْبَلاطِ الْمُبَلَّلِ بِالدَّمْعِ ، واثِقَةً مِنْ خُطاها
مَنْ سَيُنْزِلُ أَعْلامَنا : نَحْنُ ، أَمْ هُمْ ؟ وَمَنْ
سَوْفَ يَتْلو عَلَيْنا « مُعاهَدَةَ اليأس » ، يا مَلِكَ الاحْتِضار ؟
كُلُّ شَيْءٍ مُعَدٌّ لَنا سَلَفًا ، مَنْ سَيَنْزِعُ أَسْماءَنا
مَنْ هُوِيَّتِنا : أَنْتَ أَمْ هُمْ ؟ وَمَنْ سَوْفَ يَزْرَعُ فِينا
خُطْبَةَ التِّيهِ : « لَمْ نَسْتَطِعْ أَنْ نَفُكَّ الْحِصار
فَلْنُسَلِّمْ مَفاتِيحَ فِرْدَوْسِنا لِرَسُولِ السَّلامِ ، وَنَنْجو . . . »
لِلْحَقِيقَةِ وَجْهانِ ، كانَ الشِّعارُ الْمُقَدَّسُ سَيْفًا لَنا

وَعَلَيْنا ، فَماذا فَعَلْتَ بقَلْعَتنا قَبْلَ هذا النَّهار ؟
لَمْ تُقاتِلْ لأنَّكَ تَخْشى الشَّهادَةَ ، لكِنَّ عَرْشَكَ نَعْشُكْ
فاحْمِلِ النَّعْشَ كَيْ تَحفَظَ العَرْشَ ، يا مَلِكَ الانْتِظار
إنَّ هذا الرحيلَ سَيَتْرُكُنا حُفْنَةً مِنْ غُبار . . .
مَنْ سَيَدْفِنُ أيامَنا بَعْدَنا : أنتَ . . . أمْ هُمْ ؟ وَمَنْ
سَوْفَ يَرْفَعُ راياتِهِمْ فَوْقَ أسْوارِنا : أنْتَ . . . أمْ
فارِسٌ يائِسٌ ؟ مَنْ يُعَلِّقُ أجْراسَهُمْ فَوْقَ رِحْلَتِنا
أنْتَ . . . أمْ حارِسٌ بائِسٌ ؟ كُلُّ شَيْءٍ مُعَدٌّ لَنا
فَلِماذا تُطيلُ النهايَةَ ، يا مَلِكَ الاحْتِضارْ ؟

VII

مَنْ أنا . . . بَعْدَ لَيلِ الغَرِيبة ؟

مَن أنا بعدَ ليلِ الغريبة ؟ أنهضُ مِنْ حُلُمى
خائِفًا مِنْ غُموضِ النَّهارِ على مَرْمَرِ الدّارِ ، مِنْ
عَتْمةِ الشَّمْسِ فى الْوَرْدِ ، مِنْ ماءِ نافورَتى
خائِفًا مِن حَليبٍ على شَفَةِ التّينِ ، مِنْ لُغَتى
خائِفًا ، مِنْ هَواءٍ يُمَشِّطُ صَفْصافَةً خائِفًا ، خائِفا

مِنْ وُضوحِ الزَّمانِ الْكَثيفِ ، وَمِنْ حاضِرٍ لَمْ يَعُدْ
حاضِراً ، خائِفًا مِنْ مُروري على عالَمٍ لَمْ يَعُدْ
عالَمي . أَيُّها الْيَأْسُ كُنْ رَحْمَةً . أَيُّها الْمَوْتُ كُنْ
نِعْمَةً لِلْغَريبِ الَّذي يُبْصِرُ الْغَيْبَ أَوْضَحَ مِنْ
واقِعٍ لَمْ يَعُدْ واقِعًا . سَوْفَ أَسْقُطُ مِنْ نَجْمَةٍ
في السَّماءِ إلى خَيْمَةٍ في الطَّريقِ إلى . . . أَيْن ؟
أَيْنَ الطَّريقُ إلى أَيِّ شَيْءٍ ؟ أَرى الْغَيْبَ أَوْضَحَ مِنْ
شارِعٍ لَمْ يَعُدْ شارِعي . مَنْ أَنا بَعْدَ لَيْلِ الْغَريبَةِ ؟
كُنْتُ أَمْشي إلى الذّاتِ وَالآخَرينَ ، وها أَنَذا
أَخْسَرُ الذّاتَ والآخَرينَ . حِصاني على ساحِلِ الأَطْلَسِيِّ اخْتَفى
وَحِصاني على ساحِلِ الْمُتَوَسِّطِ يُغْمِدُ رُمْحَ الصَّليبِيِّ فِيَّ .
مَنْ أَنا بَعْدَ لَيْلِ الْغَريبَةِ ؟ لا أَسْتَطيعُ الرُّجوعَ إلى
إخْوَتي قُرْبَ نَخْلَةِ بَيْتي القَديم ، ولا أَسْتَطيعُ النُّزولَ إلى
قاعِ هاوِيَتي . أَيُّها الْغَيْبُ ! لا قَلْبَ لِلْحُبِّ . . . لا
قَلْبَ لِلْحُبِّ أَسْكُنُهُ بَعْدَ لَيْلِ الْغَريبَةِ . . .

VIII

كُنْ لِجيتارتى وترًا أيها الماء

كُنْ لِجيتارَتى وتَرًا أيُّها الْماءُ ؛ قَدْ وَصَلَ الْفاتحون
وَمَضى الْفاتِحونَ الْقُدامى . مِنَ الصَّعْبِ أنْ أتَذَكَّرَ وَجْهى
فى الْمَرايا . فكُنْ أنتَ ذاكِرَتى كَىْ أرى ما فَقَدْت . . .
مَنْ أنا بَعْدَ هذا الرَّحيلِ الْجَماعِىِّ ؟ لى صَخْرَةٌ
تَحْمِلُ اسْمِىَ فَوْقَ هِضابٍ تُطِلُّ على ما مَضى
وَانْقَضى . . . سَبْعُمائة عامٍ تُشَيِّعُنى خَلْفَ سُورِ الَمدينَة . . .
عَبَثًا يَسْتَديرُ الزَّمانُ لأُنقذَ ماضِىَّ مِنْ بُرْهَة
تَلِدُ الآنَ تاريخَ مَنْفاىَ فِىَّ . . . وَفى الآخَرين . . .
كُنْ لِجيتارَتى وَتَرًا أيُّها الْماءُ ، قَدْ وَصَلَ الْفاتحون
وَمَضى الْفاتِحونَ القُدامى جَنوبًا شُعوبًا تُرَمِّمُ أيّامَها
فى رُكامِ التَّحَوُّلِ : أعْرِفُ مَنْ كُنْتُ أمْسِ ، فَماذا أكُونْ
فى غَدٍ تَحْتَ رَاياتِ كولومبوسَ الأطْلَسِيَّةِ ؟ كُنْ وَتَرًا
كُنْ لِجيتارَتى وَتَرًا أيُّها الْماءُ . لا مِصْرَ فى مِصْرَ ، لا
فاسَ فى فاسَ ، وَالشّامُ تَنْأى . ولا صَقْرَ فى

رايَةِ الأهْلِ ، لا نَهرَ شَرْقَ النَّخيلِ الْمُحاصَرْ
بِخُيولِ الْمَغولِ السَّريعَةِ . فى أىِّ أَنْدَلُسٍ أَنْتَهى ؟ ههُنا
أمْ هُناكَ ؟ سأعْرِف أنّى هَلَكْتُ وأنّى تَركْتُ هُنا
خَيْرَ مافِىَّ : ماضِىَّ . لَمْ يَبْقَ لى غَيْرُ جيتارتى
كُنْ لِجيتارَتى وَتَرًا أيُّها الْماءُ . قَدْ ذَهَبَ الْفاتِحون
وأتى الْفاتِحون . . .

IX

فى الرَّحيلِ الكبيرِ أحبكِ أكثر ...

فى الرَّحيلِ الْكَبيرِ أُحِبُّكِ أكْثَرَ ، عَمّا قَليلْ
تُقْفلينَ الْمَدينَةَ . لا قَلْبَ لى فى يَدَيْكِ ، ولا
دَرْبَ يَحْمِلُنى ، فى الرَّحيلِ الْكَبيرِ أُحِبُّكِ أكْثَرْ
لا حَليبَ لِرُمّانِ شُرْفَتِنا بَعْدَ صَدْرِكِ . خَفَّ النَّخيلْ
خَفَّ وَزْنُ التِّلالِ ، وَخَفَّتْ شَوارِعُنا فى الأصيلْ
خَفَّتِ الأرْضُ إذْ وَدَّعَتْ أرْضَها . خَفَّتِ الْكَلمات
وَالْحِكاياتُ خَفَّتْ على دَرَجِ اللَّيْلِ . لكِنَّ قَلْبى ثَقيلْ
فَاتْرُكيهِ هُنا حَوْلَ بَيْتِكِ يَعْوى وَيَبْكى الزَّمانَ الْجَميلْ،

لَيسَ لى وَطَنٌ غَيْرهُ ، فى الرَّحيلِ أحبُّكِ أكْثَرْ
أفْرِغُ الرّوحَ مِنْ آخرِ الْكلماتِ : أحِبُّكِ أكْثَر
فى الرَّحيلِ تَقودُ الفَرَاشاتُ أَرْواحَنا ، فى الرَّحيلْ
نَتَذَكَّرُ زِرَّ الْقَميصِ الَّذى ضاعَ مِنّا ، ونَنْسى
تاجَ أيّامِنا ، نَتَذَكَّرُ رائحَةَ الْعَرَقِ الْمِشْمِشِيِّ ، ونَنْسى
رَقْصَةَ الْخَيْلِ فى لَيْلِ أعْراسِنا ، فى الرَّحيلْ
نَتَساوى مَعَ الطَّيْرِ ، نَرْحَمُ أيّامَنا ، نكْتَفى بِالْقَليلْ
أكْتَفى مِنْكِ بالْخَنْجَرِ الذَّهَبِىِّ يُرَقِّصُ قَلْبى الْقَتيلْ
فَاقْتُلينى ، على مَهَلٍ ، كَىْ أقولَ : أحِبُّكِ أكْثَرَ مِمّا
قُلْتُ قَبْلَ الرَّحيلِ الْكَبيرِ . أحِبُّكِ . لا شَىْءَ يوجِعنى
لا الْهَواءُ ، ولا الْماءُ . . . لا حَبَقٌ فى صَباحِكِ ، لا
زَنْبَقٌ فى مَسائِك يوجِعُنى بَعْدَ هذا الرَّحيلْ . . .

X

لا أريدُ مِنَ الحُبِّ غيرَ البِداية

لا أُريدُ مِنَ الْحُبِّ غَيْرَ الْبِدايَةِ ، يَرْفو الْحَمامُ
فَوْقَ ساحاتِ غَرْناطَتى ثَوْبَ هذا النَّهار

فى الْجِرارِ كَثيرٌ مِنَ الْخَمْرِ لِلْعيدِ مِنْ بَعْدِنا
فى الأغانى نَوافِذُ تكْفى وتَكْفى لِيَنْفَجِرَ الْجُلَّنار

أَتْرُكُ الْفُلَّ فى الْمَزهَرِيَّةِ ، أَتْرُكُ قَلْبى الصَّغير
فى خِزانَةِ أُمِّيَ ، أَتْرُكُ حُلْمِيَ فى الْماءِ يَضْحَك
أَتْرُكُ الْفَجْرَ فى عَسَلِ التِّينِ ، أَتْرُكُ يوْمى وأَمْسى
فى الْمَمَرِّ إلى ساحَةِ الْبُرْتُقالَةِ حَيْثُ يَطيرُ الْحَمامُ
هَلْ أَنا مَنْ نَزَلْتُ إِلى قَدَمَيْكِ ، لِيَعْلُوَ الْكَلامُ
قَمَرًا فى حَليبِ لَياليكِ أَبْيَضَ . . . دُقِّى الْهَواء
كَىْ أرى شارِعَ النَّايِ أَزْرَقَ . . . دُقِّى الْمَساء
كَىْ أرى كَيْفَ يَمْرَضُ بَيْنى وبَيْنَكِ هذا الرُّخامُ .

الشَّبابيكُ خالِيَةٌ مِنْ بَساتينِ شالِكِ . فى زَمَنٍ
آخَرٍ كُنْتُ أعْرِفُ عَنْكِ الْكَثيرَ ، وأَقْطُفُ غاردينيا
مِنْ أَصابِعِكِ الْعَشْرِ . فى زَمَنٍ آخَرٍ كانَ لى لُؤْلُؤٌ
حَوْلَ جيدِكِ ، واسْمٌ على خاتَمٍ شَعَّ مِنْهُ الظَّلامُ

لا أُريدُ مِنَ الْحُبِّ غَيْرَ الْبِدايَةِ ، طارَ الْحَمامُ

فَوْقَ سَقْفِ السَّماءِ الأَخيرَةِ ، طارَ الْحَمامُ وَطار
سَوْفَ يَبْقى كثيرٌ مِنَ الخَمْرِ ، من بَعْدِنا ، فى الْجِرار
وَقَليلٌ مِنْ الأَرْضِ يَكْفى لِكَىْ نَلْتَقى ، وَيَحُلَّ السَّلامُ .

XI

الكَمَنجــات

الكَمَنجاتُ تَبْكى مَعَ الْغَجَرِ الذَّاهِبينَ إلى الأَنْدَلُسْ
الكَمَنجاتُ تَبْكى على الْعَرَبِ الْخارِجينَ مِنَ الأَنْدَلُسْ

الكَمَنجاتُ تَبْكى على زَمَنٍ ضائعٍ لا يَعودْ
الكَمَنجاتُ تَبْكى على وَطَنٍ ضائعٍ قَدْ يَعودْ

الكَمَنجاتُ تُحْرِقُ غَاباتِ ذاكَ الظَّلامِ الْبَعيدِ الْبَعيدْ
الكَمَنجاتُ تُدْمى الْمُدى ، وَتَشُمُّ دَمى فى الْوَريدْ .

الكَمَنجاتُ تَبْكى مَعَ الْغَجَرِ الذَّاهِبينَ إلى الأَنْدَلُسْ
الكَمَنجاتُ تَبْكى على الْعَرَبِ الْخارِجينَ مِنَ الأَنْدَلُسْ

الكَمَنجاتُ خَيْلٌ على وَتَرٍ مِنْ سَرابٍ ، وَماءٍ يَئِنُّ
الكَمَنجاتُ حَقْلٌ مِنَ اللَّيْلَكِ الْمُتَوَحِّشِ يَنْأَى ويَدْنو

الكَمَنجاتُ وَحْشٌ يُعَذِّبُهُ ظُفْرُ إمْرأةٍ مَسَّهُ ، وَابْتَعَدْ
الكَمَنجاتُ جَيْشٌ يُعَمِّرُ مَقْبَرَةً مَنْ رُخامٍ وَمِنَ نَهَوَنْدْ

الكَمَنجاتُ فَوْضى قُلوبٍ تُجَنِّنُها الرِّيحُ فى قَدَمِ الرَّاقِصَةْ
الكَمَنجاتُ أَسْرابُ طَيْرٍ تَفِرُّ مِنَ الرَّايَةِ النَّاقِصَةْ

الكَمَنجاتُ شَكْوى الْحَريرِ الْمُجَعَّدِ فى لَيْلَةِ الْعاشِقَةْ
الكَمَنجاتُ صَوْتُ النَّبيذِ الْبَعيدِ على رَغْبَةٍ سابِقَةْ

الكَمَنجاتُ تَتْبَعُنى ، ههُنا وَهناكَ ، لِتَثْأَرَ مِنِّى
الكَمَنجاتُ تَبْحَثُ عَنِّى لِتَقْتُلَنى ، أَيْنَما وَجَدَتْنى

الكَمَنجاتُ تَبْكى على الْعَرَبِ الْخارِجينَ مِنَ الأَنْدَلُسْ
الكَمَنجاتُ تَبْكى مع الْغَجَرِ الذَّاهِبينَ إِلى الأَنْدَلُسْ

*

٢٩ القربـــــان

هيا.. تقدم أنت وحَدَك، أنت وحدك .

حولك الكهان ينتظرون أمر الله، فاصعد

أيها القربان نحو المذبح الحجرى، ياكبش

الفداء.. فدائنا.. واصعد قويا

لك حبنا، وغناؤنا المبحوح فى

الصحراء، هات الماء من غبش السراب،

وأيقظ الموتى! ففى دمك الجواب، ونحن

لم نقتلك.. لم نقتل نبيا

إلاً لنمتحن القيامة، فامتحنا أنت

فى هذا الهباء المعدنىّ. ومت لتعرف

كم نحبك... كم نحبك! مت لنعرف

كيف يسقط قلبك الملان، فوق دمائنا

رُطبا جنيا.

لك صُورة المعنى. فلا ترجع إلى

أعضاءِ جسمِك . واترك اسمك فى الصدى

صفة لشىء ما. وكن أيقونة للحائرين

وزينّة للساهرين، وكن شهيداً شاهداً

طلق المحُيا.

فبأي آلاء نكذّب؟ من يطهرنا

سواك؟ ومن يحررّنا سواك؟ وقد

ولدت نيابة عنّاً هناك، ولدت من نور

ومن نار. وكُنّا نحن نجارين مَوهوُبين فى

صنع الصليب، فخذ صليبك وارتفع

فوق الثُريا

سنقول: لم تُخطىء، ولم نُخطىء، إذا

لم يهطل المطرُ انتظرناهُ، وضحينًا بجسمك

مرة أخرى. فلا قربان غيرك، ياحبيب

الله، ياابن شقائق النعمان، كم من

مرةٍ ستعودُ حيا!

هيا، تقدم أنت وحدك، يااستعارتنا

الوحيدة فوق هاوية الفنانين. نحن الفارغين

النائمين على ظهور الخيل... نسألك الوفاء،

فكن وفيًا للسلالة والرسالة. كُن وفيًا

للأساطير الجميلة، كُن وفيا!

وبأى آلاء نكذّب؟ والكواكب فى

يديك ، فكن إشارتنا الأخيرة، كُن عبارتنا

الأخيرة فى حطُام الأبجدية «لم نزل

نحيا، ولوموتى»، على دمك اتكلنا.

دلنا، وأضىء لنا دمك الزكيا!

لم يعتذر أحد لجرحك. كُلنَا قلنا

لروما: «لم نكن معه». وأسلمناك للجلاّد.

فأصفح عن خيانتنا الصغيرة، ياأخانا

فى الرضاعة، لم نكن ندرى بما يجرى.

فكُن سمحًا رضيًا.

سنصدق الرؤيا ونؤمن بالزواج الفذّ

بين الروح والجسد المقدّس. كل ورد

الأرض لايكفى لعرشك، خفّت الأرض،

استدارت، ثم طارت كالحمامة فى سمائك.

ياذ بيحتنا الأنيقة، فاحترق لتضيئنا، ولتنبثق نجما قصيًا.

أعلى وأعلى، لست منا إن نزلت

وقلت: «لى جسدٌ يُعذبنى على خشب

الصليب». فإن نطقت.. أفقت، وانكشفت

حقيقتنا. فكنُ حلمًا لنحلم.. لاتكن بشرًا

ولا شجراً . وكن لُغزاً عصيًا

كُن همزة الوصل الخفيفة بين آلهة

السماء وبيننا، قد تمطر السُحب العقيمة

من نوافذ حرفك العالى، وكن نور البشارة،

واكتب الرؤيا على باب المغارة، واهدنا

دربا سويًا

وليحتفل بك كُلٌ مايخضرُّ من

شجر ومن حجر، ومن أشياء تنساها

الفراشة فوق قارعة الزمان قصيدة . . .

وليحتفل بك كُلٌ من لم يمتلك ذكرى،

ولا قمراً بهيًا.

لاتنكسر! لاتنتصر، كُن بَيْنَ

بين مُعلّقًا، فإذا انكسرت كَسرتنَا، . وإذا

انتصوت كسرتنا، وهدمت هيلكنا، إذن،

كن ميتا ـ حيا، وحيا ـ ميتا، ليواصل

الكُهان مهنتهم، وكُن طيفًا خفيًا

ولتبق وحدك عاليًا، لايلمس الزمنُ

الثقيل مجالك الحيوى، فاصعد مااستطعت،

فأنت أجملنُا شهيداً، كُن بعيدا ماستطعت.

لكى نرى فى الوحى ظلُّك أرجوانىّ الخريطة

والسلام عليك يوم ولدت فى بلد السلام ،

ويوم متَّ، ويوم تُبعثُ من ظلام الموت

حيا !

*

٣٠ جداريـــة

هذا هُوَ اسمُكَ /

قالتِ امرأةٌ،

وغابتْ فى المَمَرِّ اللولبيِّ . . .

أرى السماءَ هُنَاكَ في مُتَناوَلِ الأيدي .

ويحملُني جناحُ حمامةٍ بيضاءَ صَوْبَ

طُفُولَةٍ أُخرى. ولم أحلُمْ بأني

كنتُ أحلُمُ. كُلُّ شيء واقعيٌّ . كُنْتُ

أَعلَمُ أنني أُلقي بنفسي جانبًا . . .

وأطيرُ . سوف أكونُ ما سأصيرُ في

الفَلَك الأخيرِ. وكُلُّ شيء أبيضُ ،

البحرُ المُعَلَّقُ فوق سقف غمامةٍ

بيضاءَ . واللّا شيء أبيضُ في
سماء المُطْلَق البيضاءِ. كُنْتُ، ولم
أكُنْ. فأنا وحيدٌ في نواحي هذه
الأبديَّة البيضاء. جئتُ قُبَيْل ميعادي
فلم يَظْهَرْ ملاكٌ واحدٌ ليقول لي :
«ماذا فعلت، هناك، في الدنيا؟»
ولم أسمع هُتَافَ الطيّبينَ، وَلا
أنينَ الخاطئينَ، أنا وحيدٌ في البياض،
أنا وحيدُ . . .

لاشيء يُوجِعُني على باب القيامةِ.
لا الزمانُ ولا العواطفُ. لا
أُحِسُّ بخفَّةِ الأشياء أو ثِقَلِ
الهواجس. لم أجد أحداً لأسأل:
أين «أيْني» الآن؟ أين مدينةُ
الموتى، وأين أنا؟ فلا عَدَمٌ

هنا في اللا هنا . . . في اللا زمان،

ولا وُجُودُ

وكأنني قد متُّ قبل الآن . . .

أعرفُ هذه الرؤيا، وأعرفُ أنني

أمضي إلى ما لَسْتُ أعرفُ. ربَّما

ما زلتُ حيًا في مكانٍ ما، وأعرفُ

ما أريدُ . . .

سأصيرُ يومًا ما أريدُ

سأصير يومًا فكرةً. لا سَيْفَ يحملُها

إلى الأرضِ اليبابِ، ولا كتابَ . . .

كأنَّها مَطَرٌ على جَبَلٍ تَصَدَّعَ من

تَفَتُّح عُشْبَةٍ،

لا القُوَّةُ انتصرتْ

ولا العَدْلُ الشريدُ

سأصير يومًا ما أريدُ

•

سأصير يومًا طائرًا، وأَسُلُّ من عَدَمي
وجودي. كُلَّما احتَرقَ الجناحانِ
اقتربتُ من الحقيقةِ، وانبعثتُ من
الرمادِ. أنا حوار الحالمين، عَزَفْتُ
عن جَسَدي وعن نفسي لأكْمِلَ
رحلتي الأولى إلى المعنى، فأحْرَقَني
وغاب. أنا الغيابُ. أنا السماويُّ
الطريدُ.

سأصير يومًا ما أريدُ

سأصيرُ يومًا شاعرًا،
والماءُ رَهْنُ بصيرتي. لُغتي مجازٌ

للمجاز، فلا أقولُ ولا اشيرُ

إلى مكانٍ. فالمكان خطيئتي وذريعتي.

أنا من هناك. «هُنا»يَ يقفزُ

من خُطَايَ إلى مُخَيِّلتى . . .

أنا من كُنْتُ أو ساكونُ

يَصْنَعُني ويَصْرعُني الفضاءُ اللانهائيُّ

المديدُ.

ساصير يومًا ما أُريدُ

سأصيرُ يومًا كرمةً،

فَلْيَعْتَصِرني الصيفُ منذ الآن،

وليشربْ نبيذي العابرون على

ثُرَيَّات المكان السُكَّريَّ؛

أنا الرسالةُ والرسولُ

أنا العناوينُ الصغيرةُ والبريدُ

سأصير يومًا ما أريدُ

هذا هُوَ اسمُكَ/
قالتِ امرأةٌ،
وغابتْ في مَمَرِّ بياضها.
هذا هُوَ اسمُكَ، فاحفظِ اسْمَكَ جَيِّدًا؛
لا تختلفْ مَعَهُ على حَرْفٍ
ولا تَعْبَأْ براياتِ القبائلِ،
كُنْ صديقًا لاسمك الأُفُقيِّ
جَرِّبْهُ مع الأحياء والموتى
ودَرِّبْهُ على النُطْق الصحيح برفقة الغرباء
واكتُبْهُ على إحدى صُخُور الكهف،
يا اسمي: سوف تكبرُ حين أكبرُ
سوف تحمِلُني وأحملُكَ

الغريبُ أخُ الغريب

سنأخُذُ الأُنثى بحرف العِلَّة المنذور للنايات

يا اسمي: أين نحن الآن؟

قل : ما الآن، ما الغَدُ؟

ما الزمانُ وما المكانُ

وما القديمُ وما الجديدُ؟

سنكون يومًا ما نريدُ

لا الرحلةُ ابتدأتْ، ولا الدربُ انتهى

لم يَبْلُغِ الحكماءُ غربتَهُمْ

كما لم يَبْلُغ الغرباءُ حكمتَهمْ

ولم نعرف من الأزهار غيرَ شقائقِ النعمانِ،

فلنذهب إلى أعلى الجداريات:

أرضُ قصيدتي خضراءُ، عاليةٌ،

كلامُ الله عند الفجر أرضُ قصيدتي

وأنا البعيدُ

أنا البعيدُ

في كُلِّ ريحٍ تَعْبَثُ امرأةٌ بشاعرها

- خُذِ الجهةَ التي أهديتني

الجهةَ التي انكَسَرتْ،

وهاتِ أُنوثتي،

لم يَبْقَ لي إلاّ التَّأمُّلُ في

تجاعيد البُحَيْرَةَ. خُذْ غدي عنّي

وهاتِ الأمس، واتركنا معًا

لا شيءَ، بعدَكَ، سوف يرحَلُ

أو يَعُودُ

- وخُذي القصيدةَ إن أَردتِ

فليس لي فيها سواكِ

خُذي «أنا» كِ. سأُكْملُ المنفى

بما تركَتْ يداكِ من الرسائل لليمامِ.

فأيُّنا منا «أنا» لأكون آخرَها؟

ستسقطُ نجمةٌ بين الكتابة والكلامِ

وتَنْشُرُ الذكرى خواطرها: وُلِدْنا

في زمان السيف والمزمار بين

التين والصبَّار. كان الموتُ أبطأ.

كان أوْضَح. كان هُدْنَةَ عابرين

على مَصَبِّ النهر. أما الآن،

فالزرُّ الإلكترونيُّ يعمل وَحْدَهُ. لا

قاتلٌ يُصْغي إلي قتلي. ولا يتلو

وصيَّتهُ شهيدُ

من أيِّ ريح جئتِ؟

قولي ما اسمُ جُرْحِكِ أعرفِ

الطُّرُقَ التي سنضيع فيها مرّتَيْنِ!

وكُلُّ نَبْضٍ فيكِ يُوجعني، ويُرْجِعني

إلى زَمَنٍ خرافيّ. ويوجعني دمي
والملحُ يوجعني . . . ويوجعني الوريدُ

في الجرّة المكسورةِ انتحبتْ نساءُ
الساحل السوريّ من طول المسافة،
واحترقْنَ بشمس آبَ. رأيتُهنَّ على
طريق النبع قبل ولادتي. وسمعتُ
صَوْتَ الماء في الفخّار يبكيهنّ:
عُدْنَ إلى السحابة يرجعِ الزَّمَنُ الرغيدُ

قال الصدى:
لا شيء يرجعُ غيرُ ماضي الأقوياء
على مِسلاّت المدى . . . [ذهبيّةٌ آثارُهُمْ
ذهبيّةٌ] ورسائلِ الضعفاءِ للغَدِ،
أَعْطِنا خُبْزَ الكفاف، وحاضرًا أَقوى.
فليس لنا التقمُّصُ والحُلُولُ ولا الخُلُودُ

قال الصدى :

وتعبتُ من أملي العُضَال. تعبتُ

من شَرَكِ الجماليّات: ماذا بعد

بابَل؟ كُلَّما اتَّضَحَ الطريقُ إلى

السماء، وأسْفَرَ المجهولُ عن هَدَفٍ

نهائيّ تَفَشَّى النثرُ في الصلوات،

وانكسر النشيدُ

خضراءُ، أرضُ قصيدتي خضراءُ عاليةٌ . . .

تُطِلُّ عليَّ من بطحاء هاويتي . . .

غريبٌ أنتَ في معناك. يكفي أن

تكون هناك، وحدك، كي تصيرَ

قبيلةً . . .

غَنَّيتُ كي أزِنَ المدى المهدُورَ

في وَجَعِ الحمامةِ،

لا لأشْرَحَ ما يقولُ اللهُ للإنسان،

لَسْتُ أنا النبيَّ لأدَّعي وَحيًا
وأُعْلِنَ أنَّ هاويتي صُعُودُ

وأنا الغريب بكُلِّ ما أُوتيتُ من
لُغَتي. ولو أخضعتُ عاطفتي بحرف
الضاد، تخضعنى بحرف الياء عاطفتي،
وللكلمات وَهْيَ بعيدةٌ أرضٌ تُجاوِرُ
كوكبًا أعلى. وللكلمات وَهْيَ قريبةٌ
منفى. ولا يكفي الكتابُ لكي أقول:
وجدتُ نفسي حاضرًا مِلْءَ الغياب.
وكُلَّما فَتَّشْتُ عن نفسي وجدتُ
الآخرين. وكُلَّما فتَّشْتُ عَنْهُمْ لم
أجد فيهم سوى نَفسي الغريبةِ،
هل أنا الفَرْدُ الحُشُودُ؟

وأنا الغريبُ. تَعِبْتُ من «درب الحليب»

إلى الحبيب. تعبتُ من صِفَتي.
يَضيقُ الشَّكْلُ. يَتَسعُ الكلامُ. أفيضُ
عن حاجات مفردتي. وأنظُرُ نحو
نفسي في المرايا:
هل أنا هُوَ؟
هَل أُؤدّي جَيّدًا دَوْرِي من الفصل
الأخيرِ؟
وهل قرأتُ المسرحيَّةَ قبل هذا العرض،
أم فُرِضَتْ عليَّ؟
وهل أنا هُوَ من يؤدّي الدَّوْرَ
أَمْ أنَّ الضحيَّة غَيَّرتْ أقوالها
لتعيش ما بعد الحداثة، بعدما
انْحَرَفَ المؤلّفُ عن سياق النصّ
وانصرَفَ المُمَثّلُ والشهودُ؟

وجلستُ خلف الباب أنظُرُ:

•

هل أنا هُوَ؟

هذه لُغَتي. وهذا الصوت وخَزُ دمي

ولكن المؤلّف آخَرٌ . . .

أَنا لستُ مني إن أَتيتُ ولم أَصِلْ

أَنا لستُ منّي إن نطَقْتُ ولم أَقُلْ

أَنا مَنْ تَقُولُ له الحُروفُ الغامضاتُ:

اكتُبْ تَكُنْ؛

واقرأْ تَجِدْ؛

وإذا أردْتَ القَوْلَ فافعلْ، يَتَّحِدْ

ضدَّاكَ في المعني . . .

وباطنُكَ الشفيفُ هُوَ القصيدُ

بَحَّارَةٌ حولي ، ولا ميناء

أَفرغني الهباءُ من الإشارةِ والعبارةِ،

لم أجد وقتًا لأعرف أين مَنْزِلَتي،

الهُنَيْهةَ، بين مَنْزِلَتَيْنِ. لم أسأل

سؤالي، بعد، عن غَبَش التشابُهِ
بين بابَيْنِ: الخروج أم الدخول . . .
ولم أَجِدْ موتًا لأقْتَنِصَ الحياةَ.
ولم أَجِدْ صوتًا لأصرخَ: أيُّها
الزَمَنُ السريعُ؛ خَطَفْتَني مما تقولُ
لي الحروفُ الغامضاتُ:
ألواقعيُّ هو الخياليُّ الأكيدُ

يا أيها الزَّمَنُ الذي لم ينتظِرْ . . .
لم يَنْتَظِرْ أحدًا تأخَّر عن ولادتِهِ،
دَعِ الماضي جديدًا، فَهْوَ ذكراكَ
الوحيدةُ بيننا، أيَّامَ كنا أصدقاءك،
لا ضحايا مركباتك. واترُكِ الماضي
كما هُوَ، لا يُقَادُ ولا يَقُودُ

ورأيتُ ما يتذكَّرُ الموتى وما ينسون . . .

هُمْ لا يكبرون ويقرأون والوَقْتَ في
ساعات أيديهمْ. وَهُمْ لا يشعرون
بموتنا أبدًا ولا بحياتهمْ. لا شيءَ
ممَّا كُنْتُ أو سأكونُ. تنحلُّ الضمائرُ
كُلُّها. «هو» في «أنا» في «أنت».
لا كُلٌّ ولا جُزْءٌ. ولا حيٌّ يقول
لميِّتٍ: كُنِّي!

.. وتنحلُّ العناصرُ والمشاعرُ. لا
أرى جَسَدي هُنَاكَ، ولا أُحسُّ
بعنفوان الموت، أو بحياتيَ الأولى.
كأنّي لَسْتُ منّي. مَنْ أنا؟ أأنا
الفقيدُ أم الوليدُ؟

ألوقتُ صِفرٌ. لم أُفكر بالولادة
حين طار الموتُ بي نحو السديم،

فلم أكُن حيًا ولا ميْتًا،
ولا عَدَمٌ هناك، ولا وُجُودُ
تقولُ مُمَرّضتي: أنتَ أحسَنُ حالاً.
وتحقُنُني بالمُخَدّر: كُنْ هادئًا
وجديرًا بما سوف تحلُمُ
عما قليل . . .

رأيتُ طبيبي الفرنسيَّ
يفتح زنزانتي
ويضربني بالعصا
يُعَاونُهُ اثنانِ من شُرْطة الضاحية

رأيتُ أبي عائدًا
من الحجّ، مُغمىً عليه
مُصَابًا بضربة شمسٍ حجازيّة
يقول لرفٍّ ملائكةٍ حوْلَهُ

أطفئوني ! . . .

رأيتُ شبابًا مغاربةً

يلعبون الكُرَةْ

ويرمونني بالحجارة: عُدْ بالعبارةِ

واترُكْ لنا أُمَّنا

يا أبانا الذي أخطَأَ المقبرةْ !

رأيت «ريني شار»

يجلس مع «هيدغر»

على بُعْدِ مترين منِّي،

رأيتهما يشربان النبيذَ

ولا يبحثان عن الشعر . . .

كان الحوارُ شُعَاعًا

وكان غدٌ عابرٌ ينتظرْ

رأيتُ رفاقي الثلاثةَ ينتحبونَ

وَهُمْ

يَخيطونَ لي كَفَنًا

بخُيوطِ الذَّهَبْ

رأيت المعريَّ يطرد نُقَّادَهُ

من قصيدتهِ:

لستُ أعمى

لأُبصِرَ ما تبصرونْ،

فإنَّ البصيرةَ نورٌ يؤدِّي

إلى عَدَمٍ .... أو جنُونْ

رأيتُ بلادًا تعانقُني

بأيدٍ صبَاحيّة: كُنْ

جديرًا برائحة الخبز. كُنْ

لائقًا بزهور الرصيفْ

فما زال تَنُّورُ أُمِّكَ

مشتعلاً،

والتحيَّةُ ساخنةٌ كالرغيفْ !

خضراءُ، أرضُ قصيدتي خضراءُ. نهرٌ واحدٌ يكفي لأهمس للفراشة: آه، يا أُختي، ونَهْرٌ واحدٌ يكفي لإغواءِ الأساطير القديمة بالبقاء على جناح الصَّقْر، وَهْوَ يُبَدِّلُ الراياتِ والقممَ البعيدةَ، حيث أنشأت الجيوشُ ممالكَ النسيان لي. لا شَعْبَ أصْغَرُ من قصيدته. ولكنَّ السلاحَ يُوَسِّعُ الكلمات للموتى وللأحياء فيها، والحُرُوفَ تُلَمِّعُ السيفَ المُعَلَّقَ في حزام الفجر، والصحراء تنقُصُ بالأغاني، أو تزيدُ

لا عُمْرَ يكفي كي أشُدَّ نهايتي لبدايتي.

أخَذَ الرُّعَاةُ حكايتي وتَوَغَّلُوا في العشب فوق مفاتن الأنقاض، وانتصروا على النسيان بالأبواق والسَّجَع المشاع، وأورثوني بُحَّةَ الذكرى على حَجَرِ الوداع، ولم يعودوا . . .

رَعَوِيَّةٌ أيَّامنا رَعَوِيَّةٌ بين القــبـيلة والمدينـة، لم أجـد لَيْلاً خُصُوصِيًّا لهودجِكِ المُكَلَّلِ بالسراب، وقلتِ لي:

ما حــاجتــي لاسمي بدونكَ؟ نادني، فـأنا خلقتُكَ عندمـا سَمَّيْتَني، وقتلتَني حين امتلكتَ الاسمَ . . . كيف قتلتَني؟ وأنا غريبةُ كُلّ هذا الليل، أَدْخِلْني

إلى غابات شـهوتك، احتضنّي واعتَصِرْني، واسـفُك العَسَلَ الزفافيَّ النقيَّ على قفير النحل. بعثرني بما ملكتْ يداك من الرياح ولُمَّني.

فالـليل يُسْلِمُ روحَهُ لك يا غريبُ، ولن تراني نجـمةٌ إلاّ وتعـرف أنَّ عـائلتي سـتـقتلني بماء الـلازوردِ، فهـاتِني ليكونَ لي - وأنا أُحطِّمُ جَرَّتي بيديَّ - حاضِرِيَ السعيدُ

- هل قُلْتَ لي شيئًا يُغيِّر لي سبيلي؟

- لم أَقُلْ. كانت حياتي خارجي

أنا مَنْ يُحَدِّثُ نفسَهُ:

وَقَعَتْ مُعَلَّقتي الأخيرةُ عن نخيلي

وأنا المُسَافِرُ داخلي

وأنا المُحَاصَرُ بالثنائياتِ،

لكنَّ الحياة جديرَةٌ بغموضها

وبطائرِ الدوريٍّ . . .

لم أُولَدْ لأعرفَ أنني سأموتُ، بل لأُحبَّ محتوياتِ ظلِّ

اللهِ

يأخُذُني الجمالُ إلى الجميلِ

وأُحبُّ حُبَّك، هكذا متحرراً من ذاتِهِ وصفاتِهِ

وأنا بديلي . . .

أنا من يُحَدِّثُ نَفْسَهُ:

مِنْ أصغر الأشياءِ تُولَدُ أكبرُ الأفكار

والإيقاعُ لا يأتي من الكلمات،

بل مِنْ وحدة الجَسَدَيْنِ

في ليلٍ طويلٍ . . .

أنا مَنْ يحدّثُ نَفْسَهُ

ويروّضُ الذكرى . . . أأنتِ أنا؟

وثالثُنا يرفرف بيننا «لا تَنْسَيَاني دائمًا»

يا مَوْتَنا ! خُذْنَا إليكَ على طريقتنا، فقد نتعلَّمُ الإشراق . . .

لا شَمْسٌ ولا قَمَرٌ عليَّ

تركتُ ظلِّي عالقًا بغصون عَوْسَجَةٍ

فخفَّ بِيَ المكانُ

وطار بي روحي الشَّرُودُ

أنا مَنْ يحدِّثُ نفسَهُ:

يا بنتُ: ما فَعَلَتْ بكِ الأشواقُ؟

إن الريح تصقُلُنا وتحملنا كرائحة الخريفِ،

نضجتِ يا امرأتي على عُكَّازَتيَّ،

بوسعك الآن الذهابُ على «طريق دمشق»

واثقةً من الرؤيا. ملاكٌ حارسٌ

وحمامتان ترفرفان على بقيَّة عمرنا، والأرضُ عيدُ . . .

الأرضُ عيدُ الخاسرين [ونحن منهُمْ]

نحن من أثَرِ النشيد الملحميِّ على المكان، كريشةِ النَّسْرِ العجوز خيامُنا في الريحُ كُنّا طَيِّـبين وزاهدين بـلا تعـاليم المسـيح. ولـم نكُنْ أقـوى من الأعشابِ إلاّ في ختام الصيِّفِ،

أنتِ حقيقتي، وأنا سؤالُكِ

لم نَرِثْ شيئًا سوى أسْمِنَا

وأنتِ حديقتي، وأنا ظلالُكِ

عند مفترق النشيد الملحميِّ . . .

ولم نشارك في تدابيـر الإلهات اللواتي كُنَّ يبـدأن النشيد بسـحرهنَّ وكيدهـنَّ. وكُنَّ يَحْمِلْنَ المكانَ على قُرُون الوعل من زَمَنِ المكان إلى زمان آخرِ . . .

كنا طبيـعيّين لو كانت نجـومُ سمائنا أعـلى قليلاً من حجـارة بئرنا، والأنبياءُ أقلَّ إلحاحًا، فلم يسمع مدائحَنا الجُنُودُ . . .

خضراءُ، أرضُ قصيدتي خضراءُ

يحملُها الغنائيّون من زَمَنٍ إلى زَمَنٍ كما هِيَ في خُصُوبتها.

ولي منها: تأمُّلُ نَرْجسٍ في ماء صُورَتِهِ

ولي منها وُضُوحُ الظلِّ في المترادفات

ودقّةُ المعنى . . .

ولي منها: التَّشَابُهُ في كلام الأنبياءِ

على سُطُوح الليلِ

لي منها: حمارُ الحكمةِ المنسيُّ فوق التلِّ

يسخَرُ من خُرافتها وواقعها . . .

ولي منها: احتقانُ الرمز بالأضدادِ

لا التجسيدُ يُرجِعُها من الذكرى

ولا التجريدُ يرفَعُها إلى الإشراقة الكبرى

ولي منها: «أنا» الأُخرى

تُدَوِّنُ في مُفَكِّرَة الغنائيِّين يوميَّاتها:

«إن كان هذا الحُلْمُ لا يكفي

فلي سَهَرٌ بطوليٌّ على بوابة المنفى . . .»

ولي منها: صَدَى لُغتي على الجدران

يكشِطُ مِلْحَهَا البحريَّ

حين يخونني قَلْبٌ لَدُودُ . . .

أعلى من الأغوار كانت حكمتي

إذ قلتُ للشيطان: لا. لا تَمتَحِنّي!
لا تَضَعْني في الثُّنائيَّات، واتركني
كما أنا زاهدًا برواية العهد القديم
وصاعدًا نحو السماء، هُنَاكَ مملكتي
خُذِ التاريخَ، يا ابنَ أبي، خُذِ
التاريخَ . . . واصنَعْ بالغرائز ما تريدُ

وَلِيَ السكينةُ. حبَّةُ القمح الصغيرةُ
سوف تكفينا، أنا وأخي العَدُوّ،
فساعتي لم تَأْتِ بَعْدُ. ولم يَحِنْ
وقتُ الحصاد. عليَّ أن أَلِجَ الغيابَ
وأن أُصدِّقَ أوَّلاً قلبي وأتبعَهُ إلى
قانا الجليل. وساعتي لم تأتِ بَعْدُ.
لَعَلَّ شيئًا فيَّ ينبُذُني. لعلِّي واحدٌ
غيري. فلم تنضج كُرومُ التين حول
ملابس الفتيات بَعْدُ. ولم تَلِدْني

ريشةُ العنقاء. لا أَحَدٌ هنالك

في انتظاري. جئْتُ قبل، وجئتُ

بعد، فلم أَجد أحدًا يُصَدِّق ما

أرى. أنا مَنْ رأى. وأنا البعيدُ

أنا البعيدُ

مَنْ أَنتَ، يا أنا؟ في الطريقِ

اثنانِ نَحْنُ ، وفي القيامة واحدٌ.

خُذْني إلى ضوء التلاشي كي أرى

صَيْرُورتي في صُورَتي الأُخرى. فَمَنْ

سأكون بعدَكَ ، يا أنا؟ جَسَدي

ورائي أم أمامَكَ؟ مَنْ أنا يا

أنت؟ كَوِنِّي كما كَوَّنْتُكَ، ادْهَنّي

بزيت اللوز، كَلِّلني بتاج الأرز.

واحملني من الوادي إلى أَبديّةٍ

بيضاءَ. علِّمني الحياةَ على طريقتِكَ،

اختَبِرْني ذَرَّةً في العالم العُلْوِيِّ.
ساعِدْني على ضَجَر الخلود، وكُنْ
رحيمًا حين تجرحني وتبزغ من
شرايِيني الورودُ . . .

لم تأت ساعتُنا. فلا رُسُلٌ يَقِيسُونَ الزمان بقبضة العشب الأخير. هل استدار؟ ولا ملائكةٌ يزورون المكانَ ليتركَ الشعراءُ ماضِيَهُمْ على الشَّفَقِ الجميل، ويفتحوا غَدَهُمْ بأيديهم.

فغنِّي يا إلهتيَ الأثيرةَ، يا عناةُ،
قصيدتي الأُولى عن التكوين ثانيةً . . .
فقد يجدُ الرُّوَاةُ شهادةَ الميلاد
للصفصاف في حَجَرٍ خريفيّ. وقد يجدُ
الرعاةُ البئرَ في أعماق أُغنية. وقد
تأتي الحياة فجاءةً للعازفين عن
المعاني من جناح فراشةٍ عَلِقَتْ
بقافيةٍ، فغنِّي يا إلهتيَ الأثيرةَ

يا عناةُ، أنا الطريدةُ والسهامُ،
أنا الكلامُ. أنا المؤبّنُ والمؤذِّنُ
والشهيدُ .

ما قلتُ للطَّلَلِ: الوداع. فلم أكُنْ
ما كُنْتُ إلاّ مَرّةً. ما كُنْتُ إلاّ
مرَّةً تكفي لأعرف كيف ينكسرُ الزمانُ
كخيمة البدويِّ في ريح الشمال،
وكيف يَنْفَطِرُ المكانُ ويرتدي الماضي
نُثَارَ المعبد المهجور. يُشبهُني كثيرًا
كُلُّ ما حولِي، ولم أُشْبِهْ هنا
شيئًا. كأنَّ الأرض ضَيِّقَةٌ على
المرضى الغنائيِّين ، أحفادِ الشياطين
المساكين المجانين الذين إذا رأوا
حُلْمًا جميلاً لَقَّنوا الببغاءَ شِعْرَ
الحب، وانفتَحتْ أمامَهُمُ الحُدُودُ . . .

وأُريدُ أَن أَحيا . . .
فلي عَمَلٌ على ظهر السفينة. لا
لأُنقذ طائراً من جوعنا أَو من
دُوَارِ البحر، بل لأُشاهِدَ الطُوفانَ
عن كَثَبٍ: وماذا بعد؟ ماذا
يفعَلُ الناجونَ بالأرض العتيقة؟
هل يعيدونَ الحكايةَ؟ ما البدايةُ؟
ما النهايةُ؟ لم يعد أحَدٌ من
الموتى ليخبرنا الحقيقة . . ./
أَيُّها الموتُ انتظرني خارج الأرض،
انتظرني في بلادِكَ، ريثما أُنهي
حديثًا عابراً مَعَ ما تبقَّى من حياتي
قرب خيمتكَ، انتظِرْني ريثما أُنهي
قراءةَ طَرْفَةَ بنِ العَبْد. يُغْريني
الوجوديّون باستنزاف كُلِّ هُنَيْهَةٍ
حريةً، وعدالةً، ونبيذَ آلهةٍ . . ./

فيا مَوْتُ؛ انتظرني ريثما أُنهي

تدابيرَ الجنازة في الربيع الهَشّ،

حيث وُلدتُ، حيث سأمنع الخطباء

من تكرار ما قالوا عن البلد الحزين

وعن صُمُود التينِ والزيتونِ في وجه

الزمان وجيشِهِ. سأقول: صُبّوني

بحرف النون، حيث تَعُبُّ روحي

سورةُ الرحمن في القرآن. وامشوا

صامتين معي على خطوات أجدادي

ووقع الناي في أزلي. ولا

تَضَعُوا على قبرى البنفسجَ، فَهْوَ

زَهْرُ المُحْبَطينَ يُذَكِّرُ الموتى بموت

الحُبِّ قبل أوانِهِ. وَضَعُوا على

التابوتِ سَبْعَ سنابلٍ خضراءَ إنْ

وُجِدَتْ، وبَعْضَ شقائقِ النُّعْمانِ إنْ

وُجِدتْ. وإلاّ، فاتركوا وَرْدَ

الكنائس للكنائس والعرائس/
أَيُّها الموت انتظر ! حتي أُعِدَّ
حقيبتي: فرشاةَ أسناني، وصابوني
وماكنة الحلاقة، والكولونيا، والثيابَ.
هل المناخُ هُنَاكَ مُعْتَدِلٌ؟ وهل
تتبدَّلُ الأحوالُ في الأبدية البيضاء،
أم تبقى كما هِي في الخريف وفي
الشتاء؟ وهل كتابٌ واحدٌ يكفي
لِتَسْلِيَتي مع اللاَّ وقتِ، أمْ أَحتاجُ
مكتبةً؟ وما لُغَةُ الحديث هناك،
دارجةٌ لكُلِّ الناس أَم عربيّةٌ
فُصْحى/
.. ويا مَوْتُ انتظرْ، يا موتُ،
حتى أستعيدَ صفاءَ ذِهْني في الربيع
وصحّتي، لتكون صيَّادًا شريفًا لا
يَصيدُ الظَّبيَ قرب النبع. فلتكنِ العلاقةُ
بيننا وُدِّيَّةً وصريحةً: لَكَ أنتَ

ما لَكَ من حياتي حين أملأها . .

ولي منك التأمُّلُ في الكواكب:

لم يَمُتْ أحَدٌ تمامًا. تلك أرواحٌ

تغيّر شكْلَها ومُقَامَها/

يا موت! يا ظلِّي الذي

سيقودُني، يا ثالثَ الاثنين، يا

لَوْنَ الترددُّ في الزُّمُرُّد والزَّبَرْجَدِ،

يا دَمَ الطاووس، يا قَنَّاصَ قلب

الذئب، يا مَرَض الخيال! اجلسْ

على الكرسيِّ! ضَعْ أدواتِ صيدكَ

تحت نافذتي. وعلِّقْ فوق باب البيت

سلسلةَ المفاتيح الثقيلةَ؛ لا تُحَدِّقْ

يا قويُّ إلي شراييني لترصُدَ نُقْطَةَ

الضعف الأخيرةَ. أنتَ أقوى من

نظام الطبِّ. أقوى من جهاز

تَنَفُّسي. أقوى من العَسَلِ القويِّ،

ولَسْتَ محتاجًا - لتقتلني - إلى مَرَضي.

فكُنْ أسْمَى من الحشرات. كُنْ مَنْ

أنتَ، شفَّافًا بريدًا واضحًا للغيب.

كن كالحُبِّ عاصفةً على شجر، ولا

تجلس على العتبات كالشحَّاذ أو جابي

الضرائبِ. لا تكن شُرطيَّ سَيْرٍ في

الشوارع. كن قويًا، ناصعَ الفولاذ، واخلَعْ عنك أقنعةَ الثعالب. كُنْ

فروسيًا، بهيًا، كامل الضربات. قُلْ

ما شئتَ: «من معنى إلى معنى

أجيءُ. هِيَ الحياةُ سُيُولَةٌ، وأنا

أكثِّفُها، أُعرِّفُها بسُلْطاني وميزاني» ../

ويا مَوْتُ انتظرْ، واجلس على

الكرسيِّ. خُذْ كأسَ النبيذ، ولا

تفاوِضْني، فمثلُكَ لا يُفاوِضُ أيَّ

إنسانٍ، ومثلي لا يعارضُ خادمَ

الغيب. استرح ... فَلَرُبَّما أُنهِكْتَ هذا
اليوم من حرب النجوم. فمن أنا
لتزورني؟ أَلَدَيْكَ وَقْتٌ لاختبار
قصيدتي. لا. ليس هذا الشأنُ
شأنَكَ. أنت مسؤولٌ عن الطينيِّ في
البشريِّ ، لا عن فِعْلِهِ أو قَوْلِهِ/
هَزَمَتْكَ يا موتُ الفنونُ جميعُها.
هزمتك يا موتُ الأغاني في بلاد
الرافدين. مِسَلَّةُ المصريِّ، مقبرةُ الفراعنةِ،
النقوشُ على حجارة معبدٍ هَزَمَتْكَ
وانتصرتْ، وأَفْلَتَ من كمائنك
الخُلُودُ ...
فاصنع بنا، واصنع بنفسك ما تريدُ

وأنا أُريدُ، اريدُ أن أَحيا ...
فلي عَمَلٌ على جغرافيا البركان.

من أيام لوط إلى قيامة هيروشيما
واليبابُ هو اليبابُ. كأنني أحيا
هنا أبدًا، وبي شَبَقٌ إلى ما لست
أعرف. قد يكونُ «الآن» أبعَدَ.
قد يكونُ الأمس أقربَ. والغَدُ الماضي.
ولكني أشدُّ «الآن» من يَدِهِ ليعبُرَ
قربيَ التاريخُ، لا الزَّمنُ المُدَوَّرُ،
مثل فوضى الماعز الجبليِّ. هل
أنجو غدًا من سرعة الوقت الإلكترونيِّ،
أم أنجو غدًا من بُطْء قافلتي
على الصحراء؟ لي عَمَلٌ لآخرتي
كأني لن أعيش غدًا. ولي عَمَلٌ ليومٍ
حاضرٍ أبدًا. لذا أُصغي، على مَهَلٍ
على مَهَل، لصوت النمل في قلبي:
أعينوني على جَلَدي. وأسمع صَرْخَةَ
الحَجَر الأسيرةَ: حَرِّروا جسدي. وأبصرُ

في الكمنجة هجرةَ الأشواق من بَلَدٍ
تُرَابيّ إلى بَلَدٍ سماويّ. وأَقبضُ في
يد الأُنثى على أبَدِي الأليفِ: خُلِقْتُ
ثم عَشِقْتُ، ثم زهقت، ثم أفقتُ
في عُشْبٍ على قبري يدلُّ عليَّ من
حينٍ إلى حينٍ: فما نَفْعُ الربيع
السمح إن لم يُؤْنسِ الموتى ويُكْمِلْ
بعدهُمْ فَرَحَ الحياةِ ونَضْرةَ النسيان؟
تلك طريقةٌ في فكِّ لغز الشعرِ ،
شعرى العاطفيّ على الأقلِّ. وما
المنامُ سوى طريقنا الوحيدة في الكلام/
وأيُّها الموتُ التَبِسْ واجلسْ
على بلَّوْرِ أيامي، كأنَّكَ واحدٌ من
أصدقائي الدائمين، كأنَّكَ المنفيُّ بين
الكائنات. ووحدك المنفيُّ. لا تحيا
حياتَكَ. ما حياتُكَ غير موتي. لا

تعيش ولا تموت. وتخطف الأطفالَ
من عَطَشِ الحليب إلى الحليب. ولم
تكن طفلاً تهزُّ له الحساسينُ السريرَ،
ولم يداعِبْكَ الملائكةُ الصغارُ ولا
قُرونُ الأيِّل الساهي، كما فَعَلَتْ لنا
نحن الضيوفَ على الفراشة. وحدك
المنفيُّ، يا مسكين، لا امرأةٌ تَضُمُّك
بين نهديها، ولا امرأةٌ تقاسِمُك
الحنين إلى اقتصاد الليل باللفظ الإباحيِّ
المرادفِ لاختلاط الأرض فينا بالسماءِ.
ولم تَلِدْ ولَدًا يجيئك ضارعًا: أبتي،
أُحبُّكَ. وحدك المنفيُّ، يا مَلِكَ
الملوك، ولا مديح لصولجانكَ. لا
صُقُورَ على حصانك. لا لآلىءَ حول
تاجك. أيُّها العاري من الرايات
والبُوق المُقَدَّسِ؛ كيف تمشي هكذا

من دون خُرّاسٍ وجَوْقَةِ منشدين،
كَمِشْيَةِ اللصّ الجبان. وأنتَ مَنْ
أنتَ، المُعَظَّمُ ، عاهلُ الموتى، القويُّ،
وقائدُ الجيش الأشوريِّ العنيدُ
فاصنع بنا، واصنع بنفسك ما تريدُ

وأنا أُريدُ، أُريد أن أحيا، وأن
أنساك . . . أن أنسى علاقتنا الطويلة
لا لشيءٍ، بل لأقرأ ما تُدَوِّنُهُ
السماواتُ البعيدةُ من رسائلَ. كُلَّما
أعددتُ نفسي لانتظار قدومِكَ
ازددتَ ابتعادًا. كلما قلتُ: ابتعدْ
عني لأُكمل دوْرَةَ الجَسَدَيْنِ، فى جَسَدٍ
يفيضُ، ظهرتَ ما بينى وبيني
ساخرًا: «لاتَنْسَ مَوْعِدَنا . . .»
– متى؟ – في ذِروَةِ النسيان

حين تُصَدِّقُ الدنيا وتعبُدُ خاشعًا

خَشَبَ الهياكل والرسومَ على جدار الكهف،

حيث تقول: «آثاري أنا وأنا ابنُ نفسي». أين موعدُنا ؟

أتأذن لي بأن أختار مقهىً عند

باب البحر؟ - لا . . . . لا تَقْتَرِبْ

يا ابنَ الخطيئةِ، يا ابن آدمَ من

حدود الله! لم تُولَدْ لتسأل، بل

لتعمل. . . - كُن صديقًا طيِّبًا يا

موت! كُنْ معنىً ثقافيًا لأُدرك

كُنْهَ حكمتكَ الخبيئةِ! ربَّما أسْرَعْتَ

في تعليم قابيلَ الرمايةَ. ربَّما

أبطأتَ في تدريب أيُّوبٍ على

الصبر الطويل. وربما أسْرَجْتَ لي

فَرَسًا لتقتُلَني على فَرَسي. كأني

عندما أتذكَّرُ النسيانَ تُنقِذُ حاضري

لُغَتي. كأني حاضرٌ أبدًا. كأني

طائر أبدًا. كأني مُذْ عرفتُكَ
أدمنتْ لُغَتي هَشَاشَتَها على عرباتك
البيضاءِ، أعلى من غيوم النومِ،
أعلى عندما يتحرَّرُ الإحساس من عبء
العناصر كُلّها. فأنا وأنتَ على طريق
الله صوفيَّانِ محكومان بالرؤيا ولا يَرَيَان/
عُدْ يا مَوْتُ وحدَكَ سالمًا،
فأنا طليق ههنا في لا هنا
أو لا هناك. وَعُدْ إلى منفاك
وحدك. عُدْ إلى أدوات صيدك،
وانتظرني عند باب البحر. هيِّئ لي
نبيذًا أحمرًا للاحتفال بعودتي لِعيادةِ
الأرضِ المريضة. لا تكن فظًّا غليظ
القلب! لن آتي لأسخر منك، أو
أمشي على ماء البُحَيْرَة في شمال
الروح. لكنِّي - وقد أغويتَني - أهملتُ

خاتمةَ القصيدةِ: لم أزفَّ إلى أبي

أُمّي على فَرَسي. تركتُ الباب مفتوحًا

لأندلُسِ الغنائيِّين، واخترتُ الوقوفَ

على سياج اللوز والرُّمّان، أنفُضُ

عن عباءة جدِّيَ العالي خيُوطَ

العنكبوت. وكان جَيْشٌ أجنبيٌّ يعبر

الطُّرُقَ القديمةَ ذاتها، ويَقِيسُ أبعادَ

الزمان بآلة الحرب القديمة ذاتها . . ./

يا موت، هل هذا هو التاريخُ،

صِنْوُكَ أَو عَدُوُّك، صاعدًا ما بين

هاويتين؟ قد تبني الحمامة عُشَّها

وتبيضُ في خُوَذ الحديد. وربما ينمو

نباتُ الشِّيحِ في عَجَلاتِ مَرْكَبَةٍ مُحَطَّمةٍ.

فماذا يفعل التاريخُ، صنوُكَ أو عَدُوُّكَ،

بالطبيعة عندما تتزوَّجُ الأرضَ السماءُ

وتذرفُ المَطَرَ المُقَدَّسَ؟/

أيها الموت، انتظرني عند باب

البحر في مقهى الرومانسيِّين. لم

أَرجِعْ وقد طاشَتْ سهامُكَ مَرَّةً

إلاَّ لأُودِّعَ داخلي في خارجي،

وأُوزِّعَ القمح الذي امتلأتْ به رُوحي

على الشحرور حطَّ على يديَّ وكاهلي،

وأُودِّعَ الأرضَ التي تمتصُّني ملحًا، وتنثرني

حشيشًا للحصان وللغزالة. فانتظرني

ريثما أُنهي زيارتي القصيرة للمكان وللزمان،

ولا تُصَدِّقْني أعودُ ولا أعودُ

وأقول: شكرًا للحياة؛

ولم أكن حيًّا ولا مَيْتًا

ووحدك، كنتَ وحدك، يا وحيدُ؛

تقولُ مُمَرِّضتي: كُنْتَ تهذى
كثيرًا، وتصرخُ: يا قلبُ؛
يا قَلْبُ؛ خُذْني
إلى دَوْرَة الماءِ . . ./

ما قيمةُ الروح إن كان جسمي
مريضًا، ولا يستطيعُ القيامَ
بواجبه الأوليِّ ؟
فيا قلبُ، يا قلبُ أرجعْ خُطَايَ
إليَّ، لأمشي إلى دورة الماء
وحدى !

نسيتُ ذراعيَّ، ساقيَّ، والركبتين
وتُفَّاحةَ الجاذبيَّةْ
نسيتُ وظيفةَ قلبي
وبستانَ حوَّاءَ في أوَّل الأبديَّةْ

نسيتُ وظيفةَ عضوي الصغير

نسيتُ التنفُّسَ من رئتيّ.

نسيتُ الكلام

أخاف على لغتي

فاتركوا كُلَّ شيء على حالِهِ

وأعيدوا الحياة إلى لُغَتي! . .

تقول مُمَرِّضتي: كُنْتَ تهذي

كثيراً، وتصرخ بي قائلاً :

لا أُريدُ الرجوعَ إلى أحَدِ

لا أُريدُ الرجوعَ إلى بلدِ

بعد هذا الغياب الطويل . . .

أُريدُ الرجوعَ فَقَطْ

إلى لغتي في أقاصي الهديل

تقولُ مُمَرِّضتي:

كُنْتَ تهذي طويلاً، وتسألني:
هل الموتُ ما تفعلين بي الآنَ
أَم هُوَ مُوْتُ اللُّغَةْ؟
خضراءُ ، أَرضُ قصيدتي خضراءُ، عاليةٌ . . .
على مَهَلٍ أُدونُها، على مَهَلٍ، على
وزن النوارس في كتاب الماءِ. أَكتُبُها
وأُورِثُها لمنْ يتساءلون: لمنْ نُغَنِّي
حين تنتشرُ المُلُوحَةُ في الندى؟ . . .
خضراءُ، أكتُبُها على نَثْرِ السنابل في
كتاب الحقلِ، قَوَّسَها امتلاءٌ شاحبٌ
فيها وفيَّ. وكُلَّما صادَقْتُ أو
آخَيْتُ سُنْبُلَةً تَعَلَّمْتَ البقاءَ من
الفَنَاء وضدَّه: «أنا حَبَّةُ القمح
التي ماتت لكي تَخْضَرَّ ثانيةً. وفي
موتي حياةٌ ما . . .»
كأني لا كأنّي

لم يمت أَحَدٌ هناك نيابةً عني.
فماذ يحفظُ الموتى من الكلمات غيرَ
الشُكْرِ: «إنَّ الله يرحَمُنا» . . .
ويُؤْنِسُني تذكُّرُ ما نَسِيتُ مِنَ
البلاغة: «لم أَلِدْ ولَدًا ليحمل مَوْتَ
والدِه» . . .
وآثَرْتُ الزواجَ الحُرَّ بين المُفْرَدات . . .
ستَعْثُرُ الأُنثى على الذَّكَر المُلائِمِ
في جُنُوح الشعر نحو النثر . . .
سوف تشبُّ أَعضائي على جُمَّيزةٍ،
ويصُبُّ قلبي ماءَهُ الأَرضيَّ في
أَحَدِ الكواكب . . . مَنْ أنا في الموت
بعدي؟ مَنْ أنا في الموت قبلي
قال طيفٌ هامشيٌّ: «كان أوزيريسُ
مثْلَكَ، كان مثلي. وابنُ مَرْيَمَ
كان مثلَكَ، كان مثلي. بَيْدَ أَنَّ

الجُرْحَ في الوقت المناسب يوجِعُ
العَدَمَ المريضَ، ويَرْفَعُ الموتَ المؤقَّتَ
فكرةً . . .».

من أين تأتي الشاعريَّةُ؟ من
ذكاء القلب، أَمْ من فِطْرة الإحساس
بالمجهول؟ أَمْ من وردةٍ حمراءَ
في الصحراء؟ لا الشخصيُّ شخصيٌّ
ولا الكونيُّ كونيٌّ . . .

كأني لا كأني. . ./
كلما أَصغيتُ للقلب امتلأتُ
بما يقول الغَيْبُ، وارتفعتْ بِيَ
الأشجارُ. من حُلْم إلى حُلْم
أَطيرُ وليس لي هَدَفٌ أَخيرٌ.
كُنْتُ أُولَدُ منذ آلاف السنين
الشاعريَّةِ في ظلامٍ أبيض الكتّان

لم أعرف تمامًا مَنْ أنا فينا ومن

حُلْمي. أنا حُلْمي

كأني لا كأني . . .

لم تَكُنْ لُغتي تُودِّعُ نَبْرها الرعويَّ

إلاّ في الرحيل إلى الشمال. كلابُنا

هَدَأَتْ. وماعِزُنا توشَّح بالضباب على

التلال. وشجَّ سَهْمٌ طائش وَجْهَ

اليقين. تعبتُ من لغتي تقول ولا

تقولُ على ظهور الخيل ماذا يصنعُ

الماضي بأيَّامِ امرئ القيس المُوَزَّعِ

بين قافيةٍ وقَيْصَرَ . . ./

كُلَّما يَمَّمْتُ وجهي شَطْرَ آلهتي،

هنالك، في بلاد الأرجوان أضاءني

قَمَرٌ تُطَوِّقُهُ عناةُ، عناةُ سيِّدَةُ

الكِنايةِ في الحكايةِ. لم تكن تبكي على

أَحَدٍ، ولكنْ من مَفَاتِنِها بكَتْ:

هَلْ كُلُّ هذا السحرِ لي وحدي

أما من شاعرٍ عندي

يُقَاسِمُني فَرَاغَ التَّخْتِ في مجدي؟

ويقطفُ من سياج أُنوثتي

ما فاض من وردي؟

أما من شاعر يُغْوي

حليبَ الليل في نهدي؟

أنا الأولى

أنا الأُخرى

وحدّي زاد عن حدًّي

وبعدي تركُضُ الغِزلانُ في الكلمات

لا قبلي . . . ولا بعدي/

سأحلُمُ، لا لأُصْلِحَ مركباتِ الريحِ

أو عَطَبًا أصابَ الروحَ

فالأسطورة اتَّخَذَتْ مكانَتَها / المكيدةَ

في سياقِ الواقعيِّ. وليس في وُسْعِ القصيدة
أن تُغيِّرَ ماضيًا يمضي ولا يمضي
ولا أنْ تُوقِفَ الزلزالَ
لكني ساحلُمُ،
ربَّما اتسَعَتْ بلادٌ لي، كما أنا
واحدًا من أهل هذا البحر،
كفَّ عن السؤال الصعب: «مَنْ أنا؟ . . .
ههنا؟ أأنا ابنُ أمي؟»
لا تساوِرُني الشكوكُ ولا يحاصرني
الرعاةُ أو الملوكُ. وحاضري كغدي معي.
ومعي مُفَكِّرتي الصغيرةُ: كُلَّما حَكَّ
السحابةَ طائرٌ دَوَّنتُ: فَكَّ الحُلْمُ
أجنحتي. أنا أيضًا أطيرُ. فَكُلُّ
حيِّ طائرٌ. وأنا أنا، لاشيءَ
آخَرَ/

واحدٌ من أهل هذا السهل . . .
في عيد الشعير أزورُ أطلالي
البهيَّة مثل وَشْم في الهُويَّةِ.
لا تبدِّدُها الرياحُ ولا تُؤبِّدُها . . ./
وفي عيد الكروم أعُبُّ كأسًا
من نبيذ الباعة المتجوِّلينَ . . . خفيفةٌ
روحي، وجسمي مُثْقَلٌ بالذكريات وبالمكان/
وفي الربيع، أكونُ خاطرةً لسائحة
ستكتُبُ في بطاقات البريد: «على
يسار المسرح المهجور سَوْسَنَةٌ وشَخْصٌ
غامضٌ. وعلى اليمين مدينةٌ عصريَّةٌ»/

وأنا أنا، لا شيء آخَرَ . . .
لَسْتُ من أتباع روما الساهرينَ
على دروب الملح. لكنِّي أسَدِّدُ نِسْبَةً
مئويَّةً من ملح خبزي مُرْغَمًا، وأقول

للتاريخ: زَيِّنْ شاحناتِكَ بالعبيد وبالملوك الصاغرينَ، ومُرَّ

... لا أحَدٌ يقول

الآن: لا.

وأنا أنا، لا شيء آخر

واحدٌ من أهل هذا الليل. أَحلُمُ

بالصعود على حصاني فَوْقَ، فَوْقَ ...

لأتبع اليُنْبُوعَ خلف التلِّ.

فاصمُدْ يا حصاني. لم نَعُدْ في الريح مُخْتَلفَيْنِ

...

أَنتَ فُتُوَّتي وأنا خيالُكَ. فانتصِبْ

أَلِفًا، وصُكَّ البرقَ. حُكَّ بحافر

الشهوات أوعيةَ الصَّدَى. واصعَدْ،

تَجَدَّدْ، وانتصبْ أَلِفًا، توتَّرْ يا

حصاني وانتصبْ أَلفًا، ولا تسقُطْ

عن السفح الأخير كرايةٍ مهجورةٍ في

الأبجديَّة. لم نَعُدْ في الريح مُخْتَلِفَيْنِ،
أنت تَعِلَّتي وأنا مجازُكَ خارج الركب
المُرَوَّضِ كالمصائرِ. فاندفِعْ واحفُرْ زماني
في مكاني يا حصاني. فالمكانُ هُوَ
الطريق، ولا طريقَ على الطريق سواكَ
تنتعلُ الرياح. أَضِيءْ نُجومًا في السراب؛
أضيءْ غيومًا في الغياب، وكُنْ أخي
ودليلَ برقي يا حصاني. لا تَمُتْ
قبلي ولا بعدي عَلى السفح الأخير
ولا معي. حَدِّقْ إلى سيَّارة الإسعافِ
والموتى . . . لعلِّي لم أزل حيًّا/

سأَحلُمُ، لا لأُصْلِحَ أيَّ معنىً خارجي.
بل كي أُرمِّمَ داخلي المهجورَ من أثر
الجفاف العاطفيِّ. حفظتُ قلبي كُلَّهُ
عن ظهر قلبٍ: لم يَعُدْ مُتطفِّلاً

ومُدَلّلاً. تكفيه حَبَّةُ «أسبرين» لكي
يلينَ ويستكينَ. كأنَّهُ جارى الغريبُ
ولستُ طَوْعَ هوائِهِ ونسائِهِ. فالقلب
يَصْدَأُ كالحديدِ، فلا يئنُّ ولايَحِنُّ
ولا يُجَنُّ بأوَّل المطر الإباحيِّ الحنين،
ولا يرنُّ كعشب آبَ من الجفافِ.
كأنَّ قلبي زاهدٌ، أو زائدٌ
عني كحرف «الكاف» في التشبيه.
حين يجفُّ ماءُ القلب تزدادُ الجمالياتُ
تجريدًا، وتدَّثرُ العواطف بالمعاطفِ،
والبكارةُ بالمهارةِ/

كُلَّما يَمَّمْتُ وجهي شَطْرَ أُولى
الأغنيات رأيتُ آثارَ القطاة على
الكلام. ولم أكن ولدًا سعيدًا
كي أقول ، الأمس أجملُ دائمًا .
لكنَّ للذكرى يَدَيْنِ خفيفتين تُهَيِّجانِ

الأرضَ بالحُمَّى. وللذكرى روائحُ زهرةٍ
ليليَّةٍ تبكي وتُوقظُ في دَمِ المنفيِّ
حاجتَهُ إلى الإنشاد: «كُوني
مُرْتَقى شَجَني أَجدْ زمني» . . . ولستُ
بحاجةٍ إلاّ لِخَفْقَةِ نَوْرَسٍ لأتابعَ
السُّفُنَ القديمة. كم من الوقت
انقضى منذ اكتشفنا التوأمين: الوقتَ
والموتَ الطبيعيَّ المُرَادِفَ للحياة؟
ولم نزل نحيا كأنَّ الموتَ يُخطئنا
فنحن القادرين على التذكُّر قادرون
على التحرُّر، سائرون على خُطى
جلجامشَ الخضراءِ من زَمنٍ إلى زَمَنٍ . . ./
هباءٌ كاملُ التكوينِ . . .
يكسرُني الغيابُ كجرَّةِ الماءِ الصغيرة.
نام أنكيدو ولم ينهض. جناحي نام
مُلْتَفاً بحَفْنَةِ ريشِهِ الطينيِّ. آلهتي

جمادُ الريح في أرض الخيال. ذِراعِيَ
اليُمْنى عصا خشبيَّةٌ. والقَلْبُ مهجورٌ
كبئرٍ جفَّ فيها الماءُ، فاتَّسَعَ الصدى
الوحشيُّ: أنكيدو! خيالي لم يَعُدْ
يكفي لأكملَ رحلتي. لا بُدَّ لي من
قُوَّةٍ ليكون حُلْمي واقعيًا. هاتِ
أَسْلِحتي أَلَمِّعْها بِملح الدمع. هاتِ
الدمعَ، أنكيدو، ليبكى الَمْيتُ فينا
الحيَّ. ما أنا؟ مَنْ ينامُ الآن
أنكيدو؟ أنا أَم أَنت؟ آلهتي
كقبض الريح. فانهَضْ بي بكامل
طيشك البشريِّ، واحلُمْ بالمساواةِ
القليلةِ بين آلهة السماء وبيننا. نحن
الذين نُعَمِّرُ الأرضَ الجميلةَ بين
دجلةَ والفراتِ ونحفَظُ الأسماءَ. كيف
مَلَلْتَني، يا صاحبي، وخَذَلْتَني، ما نفعُ حكمتنا بدون

فُتُوَةٍ. . . ما نفعُ حكمتنا؟ على باب المتاهِ خذلتني،

يا صاحبي، فقتلتَني، وعليَّ وحدي

أن أرى، وحدي، مصائرنا. ووحدي

أحملُ الدنيا على كتفيَّ ثورًا هائجًا.

وحدي أُفتِّشُ شاردَ الخطوات عن

أبديتي. لا بُدَّ لي من حَلٍّ هذا

اللُّغزِ، أنكيدو، سأحملُ عنكَ

عُمْرَكَ ما استطعتُ وما استطاعت

قُوَّتي وإرادتي أن تحملاكَ. فمن

أنا وحدي؟ هَبَاءٌ كاملُ التكوينِ

من حولي. ولكني سأسْنِدُ ظلَّك

العاري على شجر النخيل. فأين ظلُّكَ ؟

أين ظلُّكَ بعدما انكسرَتْ جُذُوعُك؟

قمَّةٌ

الإنسان

هاويةٌ . . .

ظلمتُكَ حينما قاومتُ فيكَ الوَحْشَ،
بامرأةٍ سَقَتْكَ حليبَها، فأنِسْتَ . . .
واستسلمتَ للبشريِّ. أنكيدو، ترفَّقْ
بي وعُدْ من حيث مُتَّ، لعلَّنا
نجدُ الجوابَ، فمن أنا وحدي؟
حياةُ الفرد ناقصةٌ، وينقُصُني
السؤالُ، فمن سأسألُ عن عبور
النهر؟ فانهَضْ يا شقيقَ الملح
واحملني. وأنتَ تنامُ هل تدري
بأنك نائمٌ؟ فانهض . . . كفى نومًا؛
تحرَّكْ قبل أن يتكاثَرَ الحكماءُ حولي
كالثعالب: [كُلُّ شيء باطلٌ، فاغنَمْ
حياتَكَ مثلما هِيَ برهةً حُبْلَى بسائلها،
دَمِ العشْب المُقَطَّرِ عِشْ ليومك لا
لحلمك . كلُّ شيء. زائلٌ. فاحذَرْ
غدًا وعشِ الحياةَ الآن في اُمرأةٍ
تحبُّكَ. عِشْ لجسمِكَ لا لِوَهْمِكَ.

وانتظرْ

ولدًا سيحمل عنك رُوحَكَ

فالخلودُ هُوَ التّنَاسُلُ في الوجود.

وكُلٌّ شيءٍ باطلٌ أو زائل، أو

زائل أو باطلٌ]

مَنْ أنا؟

أَنشيدُ الأناشيد

أم حِكْمَةُ الجامعةْ؟

وكلانا أنا . . .

وأنا شَاعرٌ

ومَلِكْ

وحكيمٌ على حافّة البئرِ

لا غيمةٌ في يدي

ولا أَحَدَ عَشَرَ كوكبًا

على معبدي

ضاق بي جَسَدي

ضاق بي أبدي

وغدي

جالسٌ مثل تاج الغبار

على مقعدي

باطلٌ، باطلُ الأباطيل . . . باطلْ

كُلُّ شيء على البسيطة زائلْ

ألرياحُ شماليَّةٌ

والرياحُ جنوبيَّةٌ

تُشْرِقُ الشمسُ من ذاتها

تَغْرُبُ الشمسُ في ذاتها

لا جديدَ، إذًا

والزَمَنْ

كان أمسِ،

سُدىً في سُدَى.

ألهياكلُ عاليةٌ

والسنابلُ عالية

والسماءُ إذا انخفضت مَطَرتْ

والبلادُ إذا ارتفعتْ أقفرت

كُلُّ شيء إذا زاد عن حَدِّهِ

صار يومًا إلى ضدِّهِ.

والحياةُ على الأرض ظلٌّ

لما لا نرى . . .

باطلٌ، باطلُ الأباطيل . . . باطلْ

كلُّ شيء على البسيطة زائلْ

١٤٠٠ مركبة

و ١٢,٠٠٠ فرس

تحمل اسميْ المُذَهَّبَ من

زَمَنٍ نحو آخر . . .

عشتُ كما لم يَعِشْ شاعرٌ

مَلكًا وحكيمًا . . .

هَرِمتُ، سَئِمتُ من المجدِ

لا شيءَ ينقصني

أَلهذا إذًا

كلما ازداد علمي

تعاظَمَ هَمِّي ؟

فما أورشليمُ وما العَرْشُ؟

لا شيءَ يبقى على حالِه

للولادة وَقتٌ

وللموت وَقتٌ

وللصمت وَقتٌ

وللنُّطق وَقتٌ

وللحرب وَقتٌ

وللصُّلح وَقتٌ

وللوقتِ وَقتٌ

ولاشيءَ يبقى على حالِهِ . . .

كُلُّ نَهْرٍ سيشربُهُ البحرُ

والبحرُ ليس بملآنَ،

لاشيءَ يبقى على حالِهِ

كُلُّ حيٍّ يسيرُ إلى الموت

والموتُ ليس بملآنَ،

لا شيءَ يبقى سوى اسمي المُذَهَّبِ

بعدي:

«سُلَيمانُ كانَ» . . .

فماذا سيفعل موتى بأسمائهم

هل يضيءُ الذَّهَبُ

ظلمتي الشاسعةْ

أم نشيدُ الأناشيد

والجامعةْ؟

باطلٌ، باطلُ الأباطيل . . . باطلْ

كُلُّ شيء على البسيطة زائل/ . . .

مثلما سار المسيحُ على البُحَيْرَةِ،

سرتُ في رؤيايَ. لكنّي نزلتُ عن

الصليب لأنني أخشى العُلُوَّ، ولا

أبَشِّرُ بالقيامةِ. لم أغيِّرْ غَيْرَ

إيقاعي لأسمَعَ صوتَ قلبي واضحًا.

للملحميِّين النُّسُورُ ولي أنا: طوقُ

الحمامةِ ، نجمةٌ مهجورةٌ فوق السطوح ،

وشارعٌ متَعرِّجٌ يُفْضي إلى ميناءِ

عكا - ليس أكثرَ أو أقلَّ -

أريد أن ألقي تحيَّات الصباح عليَّ

حيث تركتُني ولدًا سعيدًا [لم

أكَنْ ولدًا سَعيدَ الحظِّ يومئذٍ،

ولكنَّ المسافةَ، مثلَ حدَّادينَ ممتازينَ،

تصنَعُ من حديدِ تافهٍ قمرًا]

- أتعرفني؟

سألتُ الظلَّ قرب السورِ،

فانتبهتْ فتاةٌ ترتدي نارًا،

وقالت: هل تُكَلّمني؟
فقلتُ: أُكلِّمُ الشَّبَحَ القرينَ
فتمتمتْ مجنونُ ليلي آخرٌ يتفقّدُ
الأطلالَ،
وانصرفتْ إلى حانوتها في آخر السُّوق
القديمة . . .
ههنا كُنّا. وكانت نَخْلَتانِ تحمِّلان
البحرَ بعضَ رسائلِ الشعراءِ . . .
لم نكبر كثيرًا يا أنا. فالمنظرُ
البحريُّ، والسُّورُ المُدَافِعُ عن خسارتنا،
ورائحةُ البَخور تقول: ما زلنا هنا،
حتى لو انفصَلَ الزمانُ عن المكانِ.
لعلَّنا لم نفترق أبدًا
- أتعرفني؟
بكى الوَلَدُ الذي ضيَّعتُهُ:
«لم نفترق. لكننا لن نلتقي أبدًا» . . .
وأَغْلَقَ موجتين صغيرتين على ذراعيه،

وحلّق عاليًا . . .

فسألتُ: مَنْ منّا المُهَاجِرُ؟/

قلتُ للسّجّان عند الشاطئ الغربيّ:

- هل أنت ابنُ سجّاني القديمِ؟

- نعم؛

- فأين أبوك؟

قال: أبي توفّيَ من سنين.

أصيبَ بالإحباط من سأم الحراسة.

ثم أورثني مُهمّتَهُ ومهنته، وأوصاني

بأن أحمي المدينةَ من نشيدكَ . . .

قُلتُ: منذُ متى تراقبني وتسجن

فيَّ نفسَك؟

قال: منذ كتبتَ أولى أغنياتك

قلت: لم تَكُ قد وُلِدْتَ

فقال: لي زَمَنٌ ولي أزليَّةٌ،

وأريد أن أحيا على إيقاعِ أمريكا

وحائطِ أورشليمَ

فقلتُ: كنْ مَنْ أنتَ. لكنني ذهبتُ.

ومَنْ تراه الآن ليس أنا، أنا شَبَحي

فقال: كفى! ألسْتَ اسمَ الصدى

الحجريِّ ؟ لم تذهَبْ ولم تَرْجعْ إذًا.

ما زلتَ داخلَ هذه الزنزانة الصفراءِ.

فاتركني وشأني؛

قلتُ: هل ما زلتُ موجودًا

هنا؟ أأنا طليقٌ أو سجينٌ دون

أن أدري. وهذا البحرُ خلف السور بحري؟

قال لي: أنتَ السجينُ ، سجينُ

نفسِكَ والحنينِ . ومَنْ تراهُ الآن

ليس أنا. أنا شَبَحي

فقلتُ مُحَدِّثًا نفسي: أنا حيٌّ.

وقلتُ: إذا التقى شَبَحانِ

في الصحراء، هل يتقاسمانِ الرملَ،

أَم يتنافسان على احتكار الليل؟/

كانت ساعَةُ الميناءِ تعمَلُ وحدها.
لم يكترثْ أَحَدٌ، بليل الوقت، صيَّادو
ثمار البحر يرمون الشباك ويجدلون
الموجَ. والعُشَّاقُ في الـ«ديسكو».
وكان الحالمون يُربِّتون القُبَّراتِ النائماتِ
ويحلمون . . .
وقلتُ: إن متُّ انتبهتُ . .
لديَّ ما يكفي من الماضي
وينقُصُني غَدٌ . . .
سأسيرُ في الدرب القديم على
خُطَايَ، على هواءِ البحر. لا
امرأةٌ تراني تحت شرفتها. ولم
أملكْ من الذكرى سوى ما ينفَعُ
السَّفَرَ الطويلَ. وكان في الأيام

ما يكفي من الغد. كُنْتُ أصْغَرَ
من فراشاتي ومن غَمَّازتين:
خُذي النُّعَاسَ وخبِّئيني في
الرواية والمساء العاطفي/
وَخبِّئيني تحت إحدى النخلتين/
وعلِّميني الشِّعْرَ / قد أتعلَّمُ
التجوال في أنحاء «هومير» / قد
أُضيفُ إلى الحكاية وَصْفَ
عكا / أقدمِ المدنِ الجميلة،
أجملِ المدن القديمةِ/ علبَةٌ
حَجَرِيَّةٌ يتحرَّكُ الأحياءُ والأمواتُ
في صلصالها كخليَّة النحل السجين
ويُضْرِبُونَ عن الزهور ويسألون
البحر عن باب الطوارئ كُلَّما
اشتدَّ الحصارُ / وعلِّميني الشِّعْرَ /
قد تحتاجُ بنتُ، ما إلى أُغنية

لبعيدها : «خُذْني ولو قَسْراً
إليكَ، وضَعْ منامي في
يَدَيْكَ». ويذهبان إلى الصدى
مُتَعانِقَيْن / كأنّني زوّجتُ ظبيًا
شاردًا لغزالةٍ / وفتحتُ أبوابَ
الكنيسةِ للحمام . . . / وعلّمني
الشِّعْر / مَنْ غزلتْ قميصَ
الصوف وانتظرتْ أمام الباب
أوْلَى بالحديث عن المدى، وبخَيْبَةِ
الأمَلِ: المُحاربُ لم يَعُدْ، أو
لن يعود، فلستَ أنتَ مَن
انتظرتُ . . . /

ومثلما سار المسيحُ على البحيرة . . .
سرتُ في رؤيايَ. لكنّي نزلتُ عن
الصليب لأنني أخشى العُلُوَّ ولا
أبشِّرُ بالقيامة. لم أغيِّر غيرَ إيقاعي

لأسمع صوتَ قلبي واضحًا . . .

للملحميِّنَ النُّسُورُ ولي أنا طَوْقُ

الحمامة، نَجْمَةٌ مهجورةٌ فوق السطوح،

وشارعٌ يُفضي إلى الميناء . . . /

هذا البحرُ لي

هذا الهواءُ الرَّطْبُ لي

هذا الرصيفُ وما عَلَيْهِ

من خُطَايَ وسائلي المنويّ . . . لي

ومحطّةُ الباصِ القديمةُ لي. ولي

شَبَحي وصاحِبُهُ. وآنيةُ النحاس

وآيةُ الكرسيّ، والمفتاحُ لي

والبابُ والحُرَّاسُ والأجراسُ لي

لِيَ حَذْوَةُ الفَرَسِ التي

طارت عن الأسوار . . . لي

ما كان لي. وقصاصَةُ الوَرَقِ التي

انتُزِعَتْ من الإنجيل لي

والملْحُ من أثر الدموع على

جدار البيت لي . . .

واسمي، وإن أخطأتُ لَفْظَ اسمي

بخمسة أَحْرُفٍ أُفُقيّةِ التكوين لي:

ميمُ/ المُتَيَّمُ والمُيَتَّمُ والمتمِّمُ ما مضى

حاءُ/ الحديقةُ والحبيبةُ، حيرتانِ وحسرتان

ميمُ/ المُغَامِرُ والمُعَدُّ المُسْتَعدُّ لموته

الموعود منفيًّا، مريضَ المُشْتَهَى

واو/ الوداعُ، الوردةُ الوسطى،

ولاءٌ للولادة أينما وُجدَتْ، ووَعْدُ الوالدين

دال/ الدليلُ، الدربُ، دمعةُ

دارةٍ دَرَسَتْ، ودوريَ يُدَلِّلُني ويُدْميني /

وهذا الاسمُ لي . . .

ولأصدقائي، أينما كانوا، ولي

جَسَدي المُؤَقَّتُ، حاضرًا أم غائبًا . . .

مِتْرانِ من هذا التراب سيكفيان الآن . . .

لي مِتْرٌ و ٧٥ سنتمتراً . . .

والباقي لِزَهْرٍ فَوْضَويّ اللونِ،

يشربني على مَهَلٍ، ولي

ما كان لي: أمسي، وما سيكون لي

غَدِيَ البعيدُ، وعودة الروح الشريد

كأنَّ شيئاً لم يكُنْ

وكأنَّ شيئاً لم يكن

جرحٌ طفيف في ذراع الحاضر العَبَثيِّ . . .

والتاريخُ يسخر من ضحاياهُ

ومن أبطالهِ . . .

يُلْقي عليهمْ نظرةً ويمرُّ . . .

هذا البحرُ لي

هذا الهواءُ الرَّطْبُ لي

واسمي –

وإن أخطأتُ لفظ اسمي على التابوت –

لي.

أما أنا – وقد امتلأتُ

بكُلِّ أَسباب الرحيل –

فلستُ لي.

أنا لَستُ لي

أنا لَستُ لي . . .

رقم الأيداع ٢٠٠١ / ١٤٨٧٤
I.S.B.N 977 - 01 - 7522 - 6

الهيئه المصريه العامه للكتاب





ين الحلم والواقع كانت مسافة زمنية ربما بدت لى طويلة أو
ضة ولكن الأهم أن الحلم أصبح واقعًا ملموسًا حيًا يتأثر
، وهكذا كانت مكتبة الأسرة تجربة مصرية صميمة بالجهد
عة والتطوير، خرجت عن حدود المحلية وأصبحت باعتراف
ة اليونسكو تجربة مصرية متفردة تستحق أن تنتشر فى كل
لعالم النامي وأسعدنى انتشار التجربة ومحاولة تعميمها فى
خرى. كما أسعدنى كل السعادة احتضان الأسرة المصرية
ضانها وانتظارها وتلهفها على إصدارات مكتبة الأسرة طوال
ام السابقة.

ولقد أصبح هذا المشروع كيانًا ثقافيًا له مضمونه وشكله
ـه النبيل. ورغم اهتماماتى الوطنية المتنوعة في مجالات
ة أخرى إلا أننى أعتبر مهرجان القراءة للجميع ومكتبة
رة هى الإبن البكر، ونجاح هذا المشروع كان سببًا قويًا لمزيد
لشروعات الأخرى.

ومازالت قافلة التنوير تواصل إشعاعها بالمعرفة الإنسانية،
ـر الروح للكتاب مصدرًا أساسيًا وخالدًا للثقافة. وتوالى
ـبة الأسرة» إصداراتها للعام الثامن علي التوالى، تضيف
ـا من جواهر الإبداع الفكرى والعلمى والأدبى وتترسخ على
ـ الأيام والسنوات زادًا ثقافيًا لأهلى وعشيرتى ومواطنى أهل
المحروسة مصر الحضارة والثقافة والتاريخ.

سوزان مبارك



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب